محاضرات في تاريخ المشرق الإسلامي ما بين القرنين (2هـ-9هـ/8م-15م)

السداسي السادس (2022/2021م)

إعداد: أ.د. أم الخير عثمانى

الدويلات المستقلة عن الدولة العباسية:

عرفت الدولة العباسية منذ وسط عهدها الأول بداية حركات استقلالية عنها، كُلت بتأسيس دويلات مستقلة عنها، إنطلاقاً من فارس، ووصولاً إلى ماوراء النهر، منها الفارسية ومنها التركية، فما أهم هذه الدويلات؟
أولاً: أخبار الطاهرية، والصفارية، والسامانية:

أخبار الطاهريين قبيل حكمهم: في سنة 198هـ/735م جعل الرشيد إلى المأمون خراسان، وسجستان، وجرجان، وطبرستان، ورويان، وديناوند، والرّي، خمس سنين، وصير إليه أمر أخيه "القاسم بن الرشيد"، المسمى "المؤتمن" على أنه إن شاء أقره، وإن شاء صرفه عن ولاية العهد بعد المأمون⁽¹⁾، وكان المأمون أيام أبيه الرشيد، وأيام أخيه الأمين يسمى: الإمام؛ إذ كان ولي عهد إلى أن واقع طاهر بن الحسين صاحب جيشه، وصاحب جيش أخيه علي بن عيسى بن ماهان، فقتله، ولمّا فارق المأمون خراسان، ووافى جرجان في سنة 203هـ/819م عقد لرجا بن ضحّاك على كور خراسان، سوى ما وراء النهر، ثمّ لغسان بن عباد على خراسان، وسجستان، وكرمان، وجرجان، وطبرستان، ورويان، وديناوند، وقومس، فبقي على هذه الأعمال كلّها سنتين كاملتين، وهو أعلم طاهر بن الحسين، ولمّا وصل المأمون إلى بغداد في سنة 204هـ/820م، وأصلح الأعمال كلّها بها⁽²⁾.

وفي سنة 205هـ/821م ومضى أكثرها تفرّغ المأمون لخراسان، فولّى طاهراً ما بين بغداد إلى أقصى الأعمال من المشرق كلّها، وهي خراسان، وسجستان، وكرمان، وقومس، وطبرستان، ورويان، وديناوند، والرّي مع شرطة بغداد التي كان يتولّاها، وعقد ألبيته ذلك كلّه في شهر رمضان المبارك سنة 205هـ/821م، فقدم على مقدمة أبيه طلحة بن طاهر إليها، ثمّ شخص هو نحوها في ذي الحجة بعد يوم النحر من هذه السنة، فوافى مرو، وقد دخلت سنة 206هـ/822م، فبقي بها سنة، وأشهرها، ثمّ مات يوم السبت لثلاث بقين من جمادى الآخرة سنة 207هـ/823م طلحة بن طاهر، فلمّا بلغ خبر موته المأمون كتب إلى عبد الله بن طاهر، وهو بالرقّة بولايته على أعمال أبيه مع ما هو متولّي له من أعمال الجزيرة، والشّام، ومصر، وإفريقية، وجعل أخاه طلحة بن طاهر خليفته على عمل المشرق، غير أنه كان يكتب المأمون باسمه، ولا يكتبه عن عبد الله، فبقي طلحة عليها خمس سنين إلى أن مات يوم الأحد لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة 213هـ/828م⁽³⁾.

ثمّ ضمّ المأمون إلى عبد الله بن طاهر الرّي، وطبرستان، ورويان، وديناوند، وكان في 212هـ/812م فتح عبد الله بن طاهر مصر، وفي سنة 217هـ/832م كان المأمون وجّه عبد الله بن طاهر لمحاربة بابك، وولاه أذربيجان، وكور الجبل، فشخص عن بغداد يوم الإثنين أربع بقين من جمادى الآخرة سنة 214هـ/829م، فنزل الدينور، ووجّه أخاه محمّد بن طاهر على خلافته إلى أعمال خراسان، وما ينضمّ إليها من أعمال سائر الكور، ثمّ كتب المأمون إلى عبد الله بن طاهر بالمسير إلى خراسان؛ لمّا بلغه من انتشار الخوارج بها، وغلبتهم على ناحية نيسابور، وغيرها، وعزله من أذربيجان، وكور الجبل، وتديبير محاربة بابك، وولّى مكانه على ذلك علي بن هشام، فنفذ عبد الله بن طاهر نحو خراسان، ونزل منها بكورة أبوشهر، فوطن نيسابور، ونزل مرو في رجب سنة 215هـ/830م، فأقام بها لمحاربة الخوارج، وجعل خليفته على شرطة بغداد إسحاق بن إبراهيم بن مُصعب⁽⁴⁾، وأمّا وراء النهر، فولّى عليه من الأصل نصر بن أحمد بن أسد سامان، وكان ذلك العمل في

يده من قَيْلٍ طاهر، فبقي عليها 19 سنة إلى أن مات في سنة 279هـ/893م ، وقام مكانه بذلك العمل أخوه إسماعيل بن أحمد بن أسد⁽⁵⁾.

ولخصّ اليقوبي سيرة آل طاهر في "وأقام عبد الله بن طاهر على خراسان، وأعمالها مستقيم الأمر، شديد السلطان والبلدان كلها مستقيمة أربع عشرة سنة، ثم توفيّ بنيسابور في سنة 230هـ/845م ، وله ثمان وأربعون سنة، فولّى الخليفة الواثق خراسان ابنه طاهر بن عبد الله بن طاهر، فأقام بخراسان خلافة الواثق، والمتوكل، والمنتصر، وبعض خلافة المستعين⁽⁶⁾، ووليّها ثماني عشرة سنة مستقيم الأمور، ثم توفيّ بنيسابور في سنة 248هـ/862م، وله أربع وأربعون سنة، ووليّ المستعين خراسان ابنه محمّد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر، فأقام والياً عليها من سنة 248هـ/862م إلى سنة 259هـ/873م ، وكانت الأمور اضطربت بخروج الحسن بن زيد الطالبي بطبرستان وغيره، وخروج يعقوب بن الليث بن الصقار بسجستان، وتخطيه إلى كور خراسان⁽⁷⁾.

ثم سار يعقوب بن الليث الصقار إلى نيسابور في شوال إلى سنة 259هـ/873م ، فقبض على محمّد بن طاهر، واستوثق منه، ومن أهل بيته، وقبض أموالهم، وما تحويه منازلهم، وحملهم في الأصفاد إلى قلعة بكرمان يقال لها: قلعة "بم"، فلم يزالوا في تلك الحال، حتى مات الصقار، وخلت خراسان منهم، وصار بها عمرو بن الليث أخو الصقار، فأقام آل طاهر ولآة خراسان خمسا وخمسين سنة، وليّها منهم خمسة أمراء، ومع انقضاء الدّول تزول الأمور، وتتغير الأحوال، ويقع العجز، ويظهر التقصير، وكان خراج خراسان يبلغ في كلّ سنة من جميع الكور أربعين ألف درهم، سوى الأخماس التي ترتفع من الثغر ينفقها آل طاهر كلها فيما يرون، ويحمل إليهم بعد ذلك من العراق ثلاثة عشر ألف ألف، سوى الهدايا⁽⁸⁾.

ويذكر اليعقوبي في تاريخه الجزء أنّ المأمون وليّ عبد الله بن طاهر الجزيرة، والشّام، والمغرب، ومصر، وصيّر إليه جميع أعمالها، وأمره بمحاربة المتغلبين بها في سنة 202هـ/818م... وكتب صاحب الخبر بخراسان أنّ طاهر بن الحسين صعد المنبر يوم الجمعة، فخطب النّاس ولم يدع لأمر المؤمنين... وتوفيّ طاهر بن الحسين سنة 207هـ/823م، وهو في الثامنة والأربعين من عمره، فولّى المأمون ابنه طلحة بن الحسن على خراسان سنة 207هـ/823م⁽⁹⁾.

كان عبد الله بن طاهر على كور الجبال وأرمينية وأذربيجان ، وكتب إلى القضاة وعمّال الخراج بالانتهاة إلى أمره فخرج عبد الله... وتوفيّ طلحة بن طاهر بخراسان، فولّى المأمون مكانه عبد الله، ووجّه إليه بعهد، وعفده مع إسحاق بن إبراهيم، ويحيى بن أكتم قاضي القضاة، فنفذ عبد الله إلى خراسان في هذه السنة⁽¹⁰⁾.

وفي أيّام الواثق بالله توفيّ عبد الله بخراسان 230هـ/845م، وكان عمره سبعا وأربعين سنة، ومنزله منها بنيسابور، وولايته أربع عشرة سنة، فولّى الواثق بالله مكانه طاهر بن عبد الله، وكان عبد الله بن طاهر قد ضبط خراسان ضبطاً ما ضبطه أحد مثله، ودانت له البلاد، واستقامت عليه الكلمة⁽¹¹⁾، وفي أيّام أحمد المستعين توفيّ طاهر بن عبد الله بن طاهر في رجب، وله من العمر أربعاً وأربعين سنة، ولم يكن أصحاب المستعين لأحد أخوف منهم لصاحب خراسان، فأفزع روعهم، ودبروا أن يخرجوا محمّد بن عبد الله من العراق إلى خراسان، فقال له المستعين أن ينفذ إلى خراسان، فقال: "إنّ أخي أوصى إلى ابنه، ولا آمن أن يكون في خروجي فساد البلد"، فكتب المستعين إلى محمّد بن طاهر بن عبد الله بولاية خراسان مكان أبيه⁽¹²⁾.

ولمّا توفيّ محمّد بن طاهر، ووليّ محمّد ابنه، وكان يوم وليّ حدي السنّ تحرّك قوم بخراسان من الشّراة، وغيرهم، وكثر الشّراة حتى كادوا أن يغلبوا على سجستان، فقام يعقوب بن الليث، ويعرف، بالصقار، من أهل النّجدة، فسأل محمّداً بن طاهر أن يأذن له في الخروج إلى الشّراة، وجمع المطوعة، فأذن له في ذلك، فسار إلى سجستان، فنفي من بها من الشّراة، ثمّ زحف إلى كرمان، ففعل كذلك، حتى نقي البلاد منهم، فعمّ شأنه، فكتب المستعين إلى محمّد أن يوليه كرمان، فأقام به، وأحسن أثره في البلاد⁽¹³⁾، وفي أيّام المعتزّ بالله توفيّ محمّد بن عبد الله بن طاهر ببغداد في ذي القعدة سنة 253هـ/630م، وكتب إلى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر بولايته على ما كان أخوه يتولّاه من الشّراة، وسائر الأعمال، وكانت سنّ محمّد يوم وفاته 44 سنة... ثمّ وجّه طاهر بن عبد الله بن طاهر صاحب خراسان سليمان بن عبد الله عمّه لمّا بلغه اضطراب الأحوال، وغلبة "وصيف"، و"بغا"...، وقويّ أمر يعقوب بن الليث الصقار، فسار إلى فارس⁽¹⁴⁾.

ثانياً . أخبار العلوية، والزّيدية:

بقيت طبرستان في يد أمراء بني العباس 106 سنة وشهرين، وواحد وعشرين يوماً إلى أن ورد الحسن بن زيد العلوي بأعوانه من الديلم خطة أمل يوم الإثنين لسبع بقين من شوال سنة 250هـ/864م، فملك طبرستان 19 سنة، وثمانية أشهر، وستة أيام، ثم مات بها يوم الإثنين لثلاث خلون من رجب سنة 270هـ/844م ماه، شهر "يوز روز باد"، وهو أعلم محمد بن زيد، ثم ملكها محمد بن زيد أخوه ثمان عشرة سنة زاحمه فيها رافع بن حرثثة ثلاث سنين⁽¹⁵⁾، وبقيت طبرستان في أيدي العلوية بعد موت الناصر الذي دخل أمل في جمادى الآخرة سنة 331هـ/943م، فملك طبرستان سنتين، وثلاثة أشهر، وأياماً، ثم مات في شعبان سنة 334هـ/946م، وله 79 سنة، وبقيت طبرستان بعده في أيدي العلوية 12 سنة، ثم انتقل الملك عنهم إلى أمر الديلم، وهو "أعلم أسفار بن شيرويه"، وذلك الذي انتزع منهم أسفار بن شيرويه عند قصد الداعي "الحسن بن القاسم" بطبرستان، ونصبه للحرب له، حتى قتله على يدي "مرداويج بن زياد الجبلي" وهو يومئذ قائد من قواده يوم الثلاثاء لست بقين من رمضان سنة 316هـ/928م، فدخل أسفار يومئذ مدينة أمل بأعلام سود، وخطب لمصر بن أحمد بن إسماعيل أمير خراسان، واستعرض أسفار في ذلك اليوم جماعة من العلوية إلى الديلم بطبرستان فقرّر منهم في قبيلة تسمى "وارداد أونداد"، والقائم به أسفار بن شيرويه، فبقي ذلك فيهم برهة من الدهر، ثم انتقل عنهم إلى الجبل مرداويج الجبلي⁽¹⁶⁾.

ولما رحل السلطان عن الديلم إلى الجبل كان القائم به منهم مرداويج، وملك يوم الخميس 16 ذي القعدة سنة 319هـ/931م ماه آذر دوز استاد، فتقرّر بالرئاسة على الديلم والجبل سنة وثلاثة أشهر ونيفا وعشرين يوماً علي بن بويه، كان على رأس هذه المدة نشأت للديلم دولة بأصفهان في قبيلة منهم تسمى "شير ذيل أوندان"، والقائم بها "علي بن بويه"، فملكها، ثم زحف عنها إلى فارس، واستولى عليها، وكان ابتداء سلطانه بأصبهان يوم الأحد 1 من ذي القعدة سنة 321هـ/933م ماه أبان روز خرداد، وعلى إثر ذلك بسنة، وكسر قتل مرداويج بأصبهان يوم الثلاثاء الثالث من شهر ربيع الأول سنة 323هـ/935م ماه بهمن روز أبان بالفارسية الحسين بن بويه، وعلى إثره بأيام ملك الحسن بن بويه أصفهان يوم الإثنين غرة ربيع الآخر سنة 323هـ/935م ماه اسفندار من روز مرداد، وبقي سلطان الجبل بعد ذلك على الرّي، وما ينضاف إليها من الأعمال 6 سنين وشهراً، وأياماً إلى أن انكشفا بباب الرّي عن عسكر خراسان يوم الخميس لعشر بقين من شهر ربيع الآخر⁽¹⁷⁾.

وذكر السيوطي تفاصيلاً عن الدولة البويهية وعلاقتهم ببني العباس، وفي سنة 322هـ/934م ظهرت الديلم؛ وذلك لأن أصحاب مرداويج دخلوا أصفهان، وكان من قواده "علي بن بويه"، فاقتطع مالا جليلاً وانفرد عن مخدمه، ثم التقى هو، ومحمد بن ياقوت نائب الخليفة، فهزم محمد، واستولى ابن بويه على فارس، وكان بويه فقيراً صعلوكاً يصيد السمك⁽¹⁸⁾، وفي نفس السنة مات مرداويج مقدم الديلم بأصفهان، وكان قد عظم أمره، وتحدثوا أنه يريد قصد بغداد، وأنه مسالم لصاحب المجوس، وكان يقول: "أنا أرد دولة العجم، وأمحق دولة العرب"⁽¹⁹⁾، وفي نفس السنة أرسل علي بن بويه إلى الراضي يقاطعه على البلاد التي استولى عليها بثمان مائة ألف درهم كل سنة، فبعث له لواء، وخلعاً، ثم أخذ ابن بويه يماطل بحمل المال⁽²⁰⁾، وفي سنة 329هـ/941م قتل بجكم التركي، فولّى إمرة الأمراء مكانه "كورتكين الديلمي"، وأخذ المتقي حواصل بجكم التي كانت ببغداد، وهي زيادة على ألف ألف دينار⁽²¹⁾.

وفي خلافة المستكفي بالله مات توزون في أيامه، ومعه كاتبه أبو جعفر بن شيرزاد، فطمع في المملكة، وحلف العساكر لنفسه، فخلع عليه الخليفة، ثم دخل أحمد بن بويه بغداد، فاخفى ابن شيرزاد، ودخل ابن بويه دار الخلافة، فوقف بين يدي الخليفة، فخلع عليه، ولقبه "مُعز الدولة"، ولقب أخاه علياً "عماد الدولة"، وأخاهما الحسن "ركن الدولة"، وضرب ألقابهم على السكة، ولقب المستكفي نفسه "إمام الحق"، وضرب ذلك على السكة، ثم إن معز الدولة قوي أمره، وحجر على الخليفة، وقدر له كل يوم برسم النفقة خمسة آلاف درهم فقط، وهو أول من ملك العراق من الديلم⁽²²⁾.

ثم إن معز الدولة تخيل من المستكفي، فدخل عليه في جمادى الآخرة سنة 334هـ/946م، فوقف والناس وقوف على مراتبهم، فتقدم الإثنان من الديلم إلى الخليفة، فمد يديه إليهما ظناً أنهما يريدان تقبيلهما، فجدباه من السرير حتى طرحاه إلى الأرض، وجراه بعمامته، وهاجم الديلم دار الخلافة إلى الحرم، ونهبوها، فلم يبق فيها شيء، ومضى معز الدولة إلى منزله، وساقوا المستكفي ماشياً إليه، وخلع، وسملت عيناه يومئذ، وكانت خلافته سنة، وأربعة أشهر، وأحضرها الفضل بن المقدر، وبايعوه، ثم قدموا ابن عمه المستكفي، فسلم عليه

بالخلافة، وأشهد على نفسه بالخلع، ثم سُجن إلى أن مات سنة 950/338م، وله ست وأربعون سنة، وشهران، وكان يتظاهر بالنشيع⁽²³⁾.

وفي سنة 947/335م جدد معز الدولة الأيمان بينه وبين المطيع، وأزال عنه التوكيل، وأعادته إلى دار الخلافة، وفي سنة 950/338م أن يُشرك معه في الأمر أخاه علي بن بويه "عماد الدولة"، ويكون من بعده، فأجابته المطيع، ثم لم ينشب أن مات معز الدولة من عامه، فأقام المطيع أخاه ركن الدولة والد عضد الدولة، وفي سنة 1011/401م ظهر قوم من التناسخية، فيهم شاب يزعم أن روح علي انتقلت إليه، وامرأته تزعم أن روح فاطمة انتقلت إليها، وآخر يدعي أنه جبريل، فضربوا، فتعززوا بالإنتماء إلى أهل البيت، فأمر معز الدولة بإطلاقهم؛ لميله إلى أهل البيت، وفي سنة 1059/450م بنى معز الدولة دارا ببغداد⁽²⁴⁾، وفي سنة 966/335م استقر الأمر للخليفة المطيع لله في دار الخلافة، واصطلح معز الدولة بن بويه، وناصر الدولة بن حمدان على ذلك، ثم حارب ناصر الدولة تكين التركي، فاقتلا مرّات متعدّدة، ثم فرّ ناصر الدولة بتكين، فسلمه بين يديه، واستقرّ بالموصل والجزيرة... وفي هذه السنة استحوذ ركن الدولة بن بويه على الرّي، وانتزعها من الخراسانية، فاتسعت مملكة بني بويه، فإنّه صار بأيديهم أعمال الرّي، والجبل، وأصبهان، وفارس، والأهواز، والعراق، ويحمل إليهم ضمان الموصل، وديار مضر، وربيعة من الجزيرة، ثم اقتتل جيش معز الدولة، وجيش أبي القاسم البريدي، فهزم أصحاب البريدي⁽²⁵⁾.

وفي سنة 967/356م ثالث عشر ربيع الأوّل توفي معز الدولة أبو الحسن، أحمد بن بويه الذيلمي الذي أظهر الرّفص... وكان معز الدولة حليما حكيما عاقلا، كانت إحدى يديه مقطوعة، وهو أوّل من أحدث السّعة بين يدي الملوك؛ ليعث بأخباره إلى أخيه ركن الدولة إلى شيراز سريعا وحي أهل هذه الصناعة، وتعلم أهل بغداد ذلك... ولما مات معز الدولة دفن بباب النّبن، في مقابر قريش، وجلس ابنه للعزاء، وأصاب الناس مطرا ثلاثة أيام تباعا، فبعث عز الدولة إلى رؤوس الدولة في هذه الأيام بمال جزيل؛ لئلا تجتمع الدولة على مخالفته قبل استحكام مبايعته، وهذا من عقله، ودهائه، وكان عمر معز الدولة 53 سنة، ومدة ولايته 21 سنة، وأحد عشر شهرا، ويومين، وكان نادى في أيامه بردّ المواريث إلى ذوي الأرحام قبل بيت المال... ولما مات قام من بعده ولده عز الدولة، أقبل على اللّهو، واللّعب، والإشغال بأمر النّساء، فنقرّق شمله، واختلفت الكلمة عليه، وطمع الأمير منصور بن نوح السّاماني صاحب بلاد خراسان في ملك بني بويه، وأرسل الجيوش الكثيفة صحبة الملك وشمكير، فلما علم بذلك ركن الدولة أرسل إلى ابنه عضد الدولة، وابن أخيه عز الدولة يستجدها، فأرسلا إليه بجنود كثيرة⁽²⁶⁾.

فركب فيها ركن الدولة، وبعث إليه وشمكير يتهدّده، ويتوعده، ويقول: "لئن قدرت عليك، لأفعلن بك، ولأفعلن"، فكتب إليه ركن الدولة "الكتي إن قدرت عليك لأحسن إليك، ولأصفح عنك"، فكانت العاقبة لهذا، فدفع الله عنه شرّه، وذلك أنّ وشمكير ركب فرسا صعبة، فتصيّد عليها، فحمل عليه خنزير، فنفرت الفرس، فألقته على الأرض، فخرج الدّم من أذنيه، فمات من ساعته، وتفرقت العساكر، وبعث ابن وشمكير يطلب الأمان من ركن الدولة، فأمنه، وأرسل إليه بالمال، والرّجال، ووفّى بما قال، وصرف الله عنه كيد السّامانية⁽²⁷⁾.

وفي سنة 1012/402م يوم عاشوراء ألزم معز الدولة النّاس بغلق الأسواق، ومنع الطّباخين من الطبخ، ونصبوا القباب في الأسواق، وعلّقوا عليها المُسوح، وأخرجوا نساء منتشرات الشّعور يطمئن في الشّوارع، ويقمن المآتم على "الحسين"، وهذا أوّل يوم نيح عليه فيه ببغداد، واستمرت هذه البدعة سنين، وفي ثاني عشر ذي الحجّة منها عمل عيد "غدير خم"، وضربت الدّباب⁽²⁸⁾، وفي سنة 973/362م صادر السلطان "بختيار" المطيع، فقال المطيع: "أنا ليس لي غير الخطبة، فإن أحببتم اعتزلت"، فشدد عليه حتّى باع قماشه، وحمل أربعمائة ألف درهم، وشاع في الألسنة أنّ الخليفة صودر⁽²⁹⁾، وفي سنة 974/363م حصل للمطيع فالج، وثقل لسانه، فدعا حاجب عز الدولة الحاجب "سبكتكين" إلى خلع نفسه، وتسليم الأمر إلى ولده الطائع لله، ففعل، وعقد له الأمر في يوم الأربعاء ثالث عشر من ذي القعدة، فكانت خلافته مدة خلافة المطيع تسعا وعشرين سنة، وأشهرها، وأثبت خلعه على القاضي ابن أمّ شيبان، وصار بعد خلعه، يسمّى "الشيخ الفاضل"⁽³⁰⁾.

أمّا الطائع لله، أبو بكر 363/393هـ، فنزل له أبوه عن الخلافة، وعمره ثلاث، وأربعون سنة، فركب، وعليه البردة، وبين يديه سبكتكين، وخلع من الغد على سبكتكين خلع السّلطنة، وعقد له اللّواء، ولقبه "نصر

الدولة"، ثم وقع بين عزّ الدولة، وسبكتين، فدعا سبكتين الأتراك لنفسه، فأجابوه، وجرى بينه وبين عزّ الدولة حروباً⁽³¹⁾، وفي سنة 975/364م قدم عضد الدولة بغداد لنصرة عزّ الدولة على سبكتين، فأعجبتة بغداد، وملكها، فعمل عليها، واستمال الجند، فشغبوا على عزّ الدولة، فأغلق بابه، وكتب عضد الدولة عن الطائع إلى الفاق باستقرار الأمر لعضد الدولة، فوقع بين الطائع وبين عضد الدولة، فقطعت الخطبة للطائع بسبب ذلك ببغداد وغيرها من يوم العشرين من جمادى الأولى إلى أن أعيدت في عاشر رجب⁽³²⁾.

وفي سنة 976/365م نزل ركن الدولة بن بويه عمّا بيده من الممالك لأولاده، فجعل لعضد الدولة فارس، وكرمان، ولمؤيد الدولة الرّبي، وأصبهان، ولفخر الدولة همذان، والديّينور، وفي رجب منها عمل مجلس الحكم في دار السلطان عزّ الدولة التمس ذلك ليُشاهد مجلس حكمه (كان الخلفاء يولون القاضي المقيم ببلدهم القضاء بجميع الأقاليم، والبلاد التي تحت ملكهم، ثمّ يستتیب القاضي من تحت أمره من شاء في كلّ إقليم، وفي كلّ بلد، ولهذا كان يلقب "قاضي القضاة"، ولا يلقب به إلا من هو بهذه الصفة، ومن عداه بالقاضي فقط، أو قاضي بلد كذا، وأمّا الآن فصار في البلد الواحد أربعة مشتركون كلّ منهم بلقب قاضي القضاة، ولعلّ أحد نواب أولئك كان في حكم الواحد من قضاة القضاة الآن، ولقد كان قاضي القضاة إذ ذاك أوسع حكماً⁽³³⁾).

وفي سنة 976/365م رجب أسقط الخطبة من الكوفة لعزّ الدولة، وأقيمت لعضد الدولة، وفي سنة 978/367م التقى عزّ الدولة، وعضد الدولة، ففرّ عضد الدولة، وأخذ عزّ الدولة أسيراً، وقتله بعد ذلك، وخلع الطائع على عضد الدولة خُلع السلطنة، وتوجّه بتاج مجوهر، وطوقه، وسوره، وفلده سيفاً، وعقد له لواءين بيده أحدهما، مفضّض على رسم الأمراء، والآخر مُذهب على رسم ولّاة العهود، ولم يعقد اللّواء الثّاني لغيره قبله، وكتب له عهداً، وقرئ بحضرته، ولم يبق أحد، إلاّ تعجب، ولم تجر العادة بذلك، إمّا كان يدفع العهد إلى الولاة بحضرة أمير المؤمنين، فإذا أخذه، قال أمير المؤمنين: "هذا عهدي إليك، فاعمل به"⁽³⁴⁾.

وفي سنة 976/365م فيها قسّم ركن الدولة بن بويه ممالكه بين أولاده عندما كُبرت سنّه، فجعل لولده عضد الدولة بلاد فارس، وكرمان، وأرجان، ولولده مؤيد الدولة الرّبي، وأصبهان، ولفخر الدولة همذان، والديّينور، وجعل ولده أبا العباس في كنف عضد الدولة، وأوصاه به... وفي سنة 977/366م توفيّ ركن الدولة، أبو علي بن بويه، وقد جاوز السّبعين سنّه... وعهد إلى ابنه عضد الدولة... ثمّ توفيّ ركن الدولة بعده بقليل... وحين تمكّن ابنه عضد الدولة قصد العراق؛ ليأخذها من ابن عمّه عزّ الدولة بختیار؛ لسوء سيرته، ورداءة سريره، فالتقوا في هذه السنّة بأرض الأهواز، فهزمه عضد الدولة⁽³⁵⁾، وفي سنة 977/366م توفيّ الحسن بن بويه، أبو علي، ركن الدولة بن بويه، عرض له قولنج، فمات ليلة السّبت الثّامن، والعشرين من المحرم منها، وكانت مدّة إمارته أربعاً وأربعين سنة، وشهراً، وتسعة أيّام، ومدّة عمره ثمان وسبعون سنة، وكان حليماً كريماً⁽³⁶⁾.

وفي سنة 989/368م أمر الطائع بأن تضرب الدّباب على باب عضد الدولة في وقت الصبح، والمغرب، والعشاء، وأن يُخطب له على منابر الحضرة، وفي سنة 990/369م ورد رسول العزيز صاحب مصر إلى بغداد، وسأل عضد الدولة الطائع يزيد في ألقابه "تاج الملة"، ويجدّد الخلع عليه، ويلبسه التّاج، فأجابته⁽³⁷⁾، وجلس الطائع على السرير، وحوله مائة بالسيّوف، والرّينة، وبين يديه مصحف عثمان، وعلى كتفه البردة، وبيده القضيب، وهو متقلّد بسيف رسول الله -صلى الله عليه وسلّم-، وضربت ستارة بعثها عضد الدولة، وسأل أن تكون حجاباً للطائع، حتّى لا يقع عليه عين أحد من الجند قبله، ودخل الأتراك، والدّيلم، وليس مع أحد منهم حديد، ووقف الأشراف، وأصحاب المراتب من الجانبين، ثمّ أذن لعضد الدولة، فدخل، ثمّ رفعت الستارة، وقبّل عضد الدولة الأرض، فارتاع زياد القائد لذلك، وقال لعضد الدولة: "ما هذا أيّها الملك؟.. أهذا هو الله؟، فالتفت إليه، وقال: "هذا خليفة الله في الأرض، ثمّ استمرّ يمشي، ويقبّل الأرض سبع مرّات، فالتفت الطائع إلى خالص الخادم، وقال: "استدنيه، فصعد عضد الدولة، فقبّل الأرض مرتين، وقال له: اذن إليّ، فدنا، وقبّل رجله، وثنى الطائع يمينه عليه، وأمره، فجلس على الكرسي، وجلس، فقال له الطائع: "قد رأيت أنّ أفوض إليك ما وكلّ الله إليّ من أمور الرّعيّة في شرق الأرض، وغربها، وتدبيرها في جميع جهاتها، سوى خاصّتي، وأسبابي، فتولّ ذلك، فقال: "يعينني الله على طاعة مولانا أمير المؤمنين، وخدمته، ثمّ أفاض عليه الخلع، وانصرف⁽³⁸⁾.

وفي سنة 981/370م خرج من همذان عضد الدولة، وقدم بغداد، فتلّقاء الطائع، ولم تجر عادة بخروج الخلفاء لتلقّي أحد، ولما توفيت بنت معزّ الدولة ركب المطيع إليه، فعزّاه، فقبّل الأرض، وجاء رسول عضد

الدولة يطلب من الطائع أن يتلقاه، فما وسعه التأخر، وفي سنة 372هـ/983م مات عضد الدولة، فولّى الطائع مكانه في السلطنة ابنه صمصام الدولة، ولقبه "شمس الملة"، وخلع عليه سبع خلع، وتوجّه، وعقد له لواعين، ثم في سنة 373هـ/984م مات ميد الدولة أخو عضد الدولة، وفي سنة 375هـ/986م هم صمصام الدولة أن يجعل المكس على ثياب الحرير، والقطن؛ ممّا يُنسج ببغداد، ونواحيها، ووقع له في ضمان ذلك ألف درهم في السنة، فاجتمع الناس في جامع المنصور، وعزموا على المنع من صلاة الجمعة، وكاد البلد يفتتن، فأعفاهم من ضمان ذلك⁽³⁹⁾.

وفي سنة 376هـ/987م قصد شرف الدولة أخاه صمصام الدولة، ومال العسكر إلى شرف الدولة، وقدم بغداد، وركب الطائع إليه يهنؤه بالبلاد، وعهد إليه بالسلطنة، وتوجّه، وقُرئ عهده، والطائع يسمع، وفي سنة 378هـ/999م أمر شرف الدولة برصد الكواكب السبعة في سيرها، كما فعل المأمون، وفيها اشتدّ الغلاء ببغداد جدًّا، وظهر الموت بها، ولحق الناس بالبصرة حرًّا، وسموم تتساقط منه، وجاءت ريحا عظيمة بغمّ الصلح حرقت دجلة، حتّى ذكر أنّه بانث أرضها، وأغرقت كثيرا من السفن، واحتملت زورقا منحدرًا، وفيه دواب⁽⁴⁰⁾.

وفي سنة 379هـ/1000م مات شرف الدولة، وعهد إلى أخيه أبي نصر، فجاءه الطائع إلى دار المملكة يعزّيه، فقبل الأرض غير مرّة، ثم ركب أبونصر إلى الطائع، وحضر الأعيان، فخلع الطائع على أبي نصر سبع خلع أعلاها سوداء، وعمامة سوداء، وفي عنقه طوقا كبيرا، وفي يده سواران، ومشى الحجاب بين يديه بالسيف، ثم قبل الأرض بين يدي الطائع، وجلس على كرسي، وقُرئ عهده، ولقبه الطائع بهاء الدولة، وضيء الملة⁽⁴¹⁾.

وفي سنة 381هـ/992م قبض على الطائع، وسببه أنّه حبس رجلا من خواص بهاء الدولة، فجاء بهاء الدولة، وقد جلس الطائع في الرّواق متقلدا سيفًا، فلما قرّب بهاء الدولة قبل الأرض، وجلس على الكرسي، وتقدّم أصحاب بهاء الدولة، فجدبوا الطائع من سريره، وتكاثر الدّيلم، فلّفوه في كساء، وأصعد إلى دار السلطنة، وارتح البلد، ورجع بهاء الدولة، وكتب على الطائع أيمانًا بخلع نفسه، وأنّه سلّم الأمر إلى القادر بالله، وشهد عليه الأكابر، والأشراف، وذلك في تاسع عشر شعبان، ونفذ إلى القادر بالله؛ ليحضر وهو بالطيحة، واستمرّ الطائع في دار القادر بالله مكرّمًا محترمًا في أحسن حال، ومات ليلة عيد الفطر سنة 393هـ/1003م، وكان شديد الانحراف لآل البيت⁽⁴²⁾.

أمّا القادر بالله، فبويغ له بالخلافة بعد خلع الطائع، ففي شوال من سنة ولايته عقد مجلسا عظيما، وحلف القادر، وبهاء الدولة كلّ منهما لصاحبه بالوفاء، وقلده القادر ما وراء بابه؛ ممّا تُقام فيه الدّعوة، وفي سنة 387هـ/997م مات السلطان فخر الدولة، وأقيم ابنه رستم مقامه في السلطنة بالرّي، وأعمالها وهو ابن أربع سنين، ولقبه القادر بالله "مجد الدولة"، وفي سنة 394هـ/1004م قلّد بهاء الدولة الشريف أبا أحمد، الحسين بن موسى الموسوي قضاء القضاة، والحجّ، والمظالم، ونقابة الطالبيين، وكتب له من شيراز العهد، فلم ينظر في القضاء؛ لامتناع القادر من الإذن له، وفي سنة 398هـ/1008م وقعت فتنة بين الشيعة، وأهل السنة في بغداد... وصاح الرّافضة ببغداد: "ياحاكم، يامنصور"، فاحفظ القادر من ذلك، وأنفذ الفرسان الذين على بابه؛ لمعاونة أهل السنة، فانكسر الرّوافض⁽⁴³⁾.

(1) الأصفهاني(حمزة بن الحسن): كتاب ملوك سني الأرض والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ص228 ؛ يذكر خليفة بن خياط"في 812/196م قدم طاهر بن الحسين بغداد، وبايعه الحريبة. أنظر، خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص467 .

(2) الأصفهاني: كتاب ملوك سني الأرض، صص226 ، 227 ؛ وكان المأمون قد وليّ عبد الله بن طاهر كور الجبل، وأذربيجان، فخرج، وأقام بالدينور عليلا، فولاه المأمون خراسان مكان أخيه طلحة بن طاهر، ووجه إليه بعهد، وعقده مع إسحاق بن إبراهيم، ويحيى بن أكرم قاضي القضاة، فشخص عبد الله بن طاهر إلى خراسان، فنزل نيسابور، ولم ينزلها وال من ولّاه خراسان قبله، وجعلها وطنه. أنظر، اليعقوبي: البلدان، ص142 .

(3) الأصفهاني: كتاب سني ملوك، صص227 ، 228 ؛ يذكر الطبري نصّ وصية الطاهر بن الحسين إلى ولده عبد الله بن طاهر. أنظر، الطبري: تاريخ الطبري، أحداث سنة206هـ ، ج5، ص847 وما بعدها .

(4) الأصفهاني: كتاب سني ملوك الأرض، صص229 ، 230 .

(5) الأصفهاني: نفس المصدر، ص234 ؛ ذكر ابن كثير بعضا من حكام السامانية فيما بعد حسب سنوات متفرقة، في سنة 343هـ/955م مات الأمير الحميد نوح بن نصر الساماني صاحب خراسان، وما وراء النهر، وقام بالأمر من بعده ولده عبد الملك، وفي سنة 350هـ/962م توفي الأمير عبد الملك بن نوح صاحب خراسان، سقط عن فرسه، فمات، فقام بالأمر من بعده أخوه منصور بن نوح الساماني. أنظر، ابن كثير: البداية والنهاية، ج7 ، ص275 -284 ؛ وفي سنة 366هـ/977م منتصف شوال توفي الأمير منصور بن نوح الساماني صاحب بلاد خراسان ببخارى، وكانت ولايته خمس عشرة سنة، وقام بالأمر بعده ولده أبو القاسم، نوح، وكان عمره إذ ذاك ثلاث عشرة سنة، ولقب بالمنصور. أنظر، ابن كثير: أنظر، ابن كثير: نفس المصدر، ج7 ، ص33 .

- (6) اليقوبي(أحمد بن أبي يعقوب بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح ت284هـ):البلدان، وضع حواشيه :محمد أمين ضناوي، الطبعة الأولى 1422هـ/2002م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص142 .
- (7) اليقوبي: نفس المصدر، ص143 .
- (8) اليقوبي: نفس المصدر، ص ص143 ، 144 .
- (9) اليقوبي: تاريخ اليقوبي، ج 2 ، ص 423 .
- (10) اليقوبي: نفس المصدر، ص 421 .
- (11) اليقوبي: نفس المصدر، ص442 .
- (12) اليقوبي: نفس المصدر، ص459 .
- (13) اليقوبي: نفس المصدر، ص ص 459 ، 460 .
- (14) اليقوبي: نفس المصدر، ص470-467 .
- (15) الأصفهاني: كتاب سنّي ملوك، ص239 .
- (16) نفسه .
- (17) الأصفهاني: نفس المصدر، ص 423 .
- (18) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص287 .
- (19) السيوطي: نفس المصدر، ص289 .
- (20) نفسه .
- (21) السيوطي: نفس المصدر، ص291 .
- (22) السيوطي: نفس المصدر، ص 293 .
- (23) السيوطي: نفس المصدر، ص ص293 ، 294 ؛ ذكر ابن كثير عن أول دولة بني بويه، وحكمهم ببغداد، أقبل معزّ الدولة، أبوالحسين، أحمد بن بويه في جحافل، فلمّا اقترب من بغداد بعث إليه الخليفة المستكفي بالله الهدايا، والإنزالات، وقال للرسول: أخبره أنّي مسرور به، وإني إنّما اختفيت من شرّ الأتراك الذين انصرفوا إلى الموصل، وبعث إليه بالخلع، والتحف، ودخل معزّ الدولة بن بويه بغداد في حادي عشر جمادى الأولى من هذه السنة946/334هـ فنزل بباب الشماسية، ودخل من الغد إلى الخليفة، فبأبعه، وخلع عليه المستكفي، ولقّب بمعزّ الدولة، ولقّب أخاه أبا الحسن عليّاً بعماد الدولة، وأخاه أبا علي، الحسن بركن الدولة، وكتب ألقابهم على الدراهم، والدنانير، ونزل معزّ الدولة بدار مؤنس الخادم، ونزل أصحابه من الدّيلم في دُور الناس، فلقّي الناس من ذلك كُلفة شديدة، وأمن معزّ الدولة ابن شيرزاد، فلمّا استكتبه على الخراج، ورثب للخليفة بسبب نفقاته خمسة آلاف في كلّ يوم، واستقرّت الأمور على هذا النظام... ولمّا كان اليوم الثّاني والعشرون من جمادى الآخرة حضر معزّ الدولة إلى الحضرة، فجلس على سرير بين يدي الخليفة، وجاء رجالان من الدّيلم، فمدّ أيديهما إلى الخليفة، فأنزلاه عن كرسيه، وسحبا، فترثبت عمامته من حلّقه، ونهض معزّ الدولة، واضطربت دار الخلافة حتّى خلص إلى الحرّيم، وتفاقم الحال، وسبق الخليفة ماشيا إلى دار معزّ الدولة، فاعتقل بها، وأحضر أبو القاسم، الفضل بن المقتدر، فبوع بالخلافة، وسُملت عينا المستكفي، وأودع السّجن، فلم يزل به مسجوناً حتّى كانت وفاته في سنة 950/338هـم. أنظر، ابن كثير، البداية والنهاية، ج6 ، ص ص255 ، 256 .
- (24) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ص294 ، 295 ؛ في سنة 962/350م في محرم منها مرض معزّ الدولة بن بويه بانحصار البُول، ففلق من ذلك، وجمع بين حاجبه سبكتكين، ووزيره المهلب، وأصلح بينهما، ووصّاهما بولده بختيار خيرا، ثمّ عوفي من ذلك، فعزم على الرّحيل إلى الأهواز، واعتقد أنّ ما أصابه من هواء بغداد، ومائها، فأشير عليه بالمقام بها، وأن يبني بها دارا في أعلاها، حيث الهواء أرق، والماء أصفى، فبنى له دارا غرم عليها ثلاثة عشر ألف درهم، فاحتاج لذلك أن يصادر بعضا لأصحابه، ويقال: أنفق على هذه الدار ألفي ألف دينار، ومات، وهو يبني فيها، وقد خرّب أشياء كثيرة من معالم بغداد في بنائها، وكان ممّا خرّب فيها المعشوق من سرّ من رأى، وقلع الأبواب الحديد التي على مدينة المنصور، والرصافة، وقصرها، وحولها إلى داره هذه لا تمّت فرحته بها. أنظر، ابن كثير: البداية والنهاية، ج6 ، ص 284 .
- (25) ابن كثير: البداية والنهاية، ج6 ، ص264 .
- (26) ابن كثير: نفس المصدر، ص208 .
- (27) ابن كثير: نفس المصدر، ص309 .
- (28) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ص 295 ، 296 .
- (29) السيوطي: نفس المصدر، ص 296 .
- (30) السيوطي: نفس المصدر، ص 298 .
- (31) نفسه .
- (32) السيوطي: نفس المصدر، ص 299 .
- (33) السيوطي: نفس المصدر، ص297 وما بعدها.
- (34) السيوطي: نفس المصدر، ص 299 .
- (35) ابن كثير: البداية والنهاية، ج6، ص ص 331 ، 332 .
- (36) ابن كثير: نفس المصدر، ص 335 .
- (37) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ص 299 ، 300 .
- (38) نفسه .
- (39) السيوطي: نفس المصدر، ص ص 300 ، 301 .
- (40) السيوطي: نفس المصدر، ص 301 .
- (41) نفسه .
- (42) نفسه .
- (43) السيوطي: نفس المصدر، ص ص 303 ، 304 .

أسسها ألب تكين، ففي سنة 366هـ/977م، كان ابتداء ملك سبكتكين، والد محمود صاحب غزنة، وقد كان سبكتكين مولى للأمير "أبي إسحاق بن ألبت كين"، صاحب جيش غزنة، وأعمالها للسامانية، وليس هذا بحاجب معز الدولة، ذلك توفي قبل هذه السنة، وأما هذا، فإنه لما مات مولاه لم يترك أحداً يصلح للملك من بعده، لا من ولده، ولا من قومه، فاصطاح الجيش على مبايعة سبكتكين هذا؛ لخيره فيهم، وحسن سيرته، وكمال عقله، وشجاعته، وديانتته، فاستقر الملك بيده، واستمر من بعده في ولده السعيد محمود بن سبكتكين، وقد غزا سبكتكين هذا بلاد الهند، ففتح شيئاً كثيراً من حصونهم، وغنم شيئاً كثيراً، وكسر من أصنامهم، ونذرهم أمراً هائلاً، وباشر من معه من الجيوش حروبا، وقد قصد "جيبال" ملك الهند بنفسه، وجنوده التي تعم السهول، والجبال، فكسره مرتين، وردهم إلى بلادهم في أسوأ حال، وأردإ بال⁽¹⁾.

وفي سنة 409هـ/1019م غزا محمود بن سبكتكين بلاد الهند، وتواقع هو، وملك الهند، فاقتتل الناس قتالا عظيماً، ثم انجلت عن هزيمة الهند، فأخذ المسلمون منهم أموالاً عظيمة من الجواهر، والذهب، والفضة، ومائتي فيل⁽²⁾، وفي سنة 410هـ/1020م ورد فيها كتاباً من يمين الدولة محمود بن سبكتكين، وفتح لبلاد الهند، يذكر فيه ما افتتحه من بلاد الهند، وفيه أنه دخل مدينة، وجد بها ألف قصر مشيد، وألف بيت للأصنام، ومبلغ ما في الصنم من الذهب يقارب مائة ألف دينار، ومبلغ الأصنام الفضة، زيادة على ألف صنم، وعندهم صنم معظم يؤرخون مدته بجهالتهم بثلاثمائة ألف عام، وقد عمّ المجاهدون بالإحراق، فلم يبق منها إلا الرسوم، وبلغ عدد الهالكين من الهند خمسين ألفاً، وأسلم منهم نحو من عشرين ألفاً، وأفرد خمس الرقيق، فبلغ ثلاثاً، وخمسين ألفاً، واستعرض من الأفيال ثلاثمائة، وستة، وخمسون فيلاً، وحصل من الأموال عشرون ألف ألف درهم⁽³⁾.

وفي سنة 412هـ/1022م فيها قال جماعة من المسلمين للملك يمين الدولة محمود بن سبكتكين: "أنت أكبر ملوك الأرض، وفي كل سنة تفتح طائفة من بلاد الكفر، وهذه طريق الحج قد تعطلت منذ مدة سنين، وفتحك لها أوجب من غيرها"، فتقدم إلى قاضي القضاة بعمله أبي محمد الناصحي "أن يكون أمير الحج في هذه السنة، وبعث معه بثلاثين ألف دينار للأعراب، غير ما جهز من الصدقات إلى الحرمين، فسار الناس بصحبته⁽⁴⁾.

وفي سنة 411هـ/1021م توفي محمود بن سبكتكين، أبو القاسم، الملقب بيمين الدولة، وأمين الملة، صاحب بلاد غزنة، وما والاه، وجيشه يقال له: السامانية، وكان أبوه قد تملك عليهم، وتوفي سنة 337هـ/949م، فتملك عليهم من بعده ولده محمود هذا، فسار فيهم، وفي سائر رعاياه سيرة عادلة، وقام بأعباء الإسلام قياماً تاماً، وفتح فتوحات كثيرة في بلاد الهند، وغيرها... وكان يخطب في سائر ممالكه للخليفة القادر بالله، وكانت رسل الفاطميين من مصر تقد عليه بالكتب، والهدايا، والتحف لأجل أن يكون من جهتهم، فيحرق بهم، ويحرق كتبهم، وهداياهم... وكسر ملك الترك الأعظم الذي يقال له: إيلك خان، وأباد ملك السامانية، وقد ملكوا العالم في بلاد سمرقند، وما حولها، ثم هلكوا⁽⁵⁾.

وبني على جيحون جسراً تعجز الملوك، والخلفاء عنه غرم عليه ألفي ألف دينار... وكان مع هذا في غاية الديانة، والصيانة، وكراهية المعاصي، وأهلها، لا يحب منها شيئاً، ولا يألفه، ولا أن يسمع بها، ولا يجسر أحد أن يظهر معصية، ولا خمر في مملكته، ولا غير ذلك، ولا يحب الملاهي، ولا أهلها، وكان يحب العلماء، والمحدثين، ويكرمهم، ويجالسهم، ويحب أهل الخير والدين، والصلاح، وسحن إليهم، وكان حنفيًا، ثم صار شافعيًا... وكان مرضه سوء مزاج اعتراه، وانطلاق البطن سنتين، ومات يوم الخميس لسبع خلون من ربيع الآخر من هذه السنة، عن ثلاث وستين سنة، ملكه منها ثلاث، وثلاثين سنة، وخلف من الأموال شيئاً كثيراً، وملك من بعده ولده، محمد، ثم صار الملك إلى ولده الآخر مسعود بن محمد، فأشبهه أباه⁽⁶⁾.

وفي سنة 424هـ/1033م، غزا السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين بلاد الهند، وفتح حصونا كثيرة⁽⁷⁾، وفي سنة 427هـ/1036م فيها استولى ركن الدولة، أبو طالب طغرل بك، محمد بن مكائيل بن سلجوق على نيسابور، وجلس على سرير ملكها، وبعث أخاه داود إلى سائر بلاد خراسان، فملكها، وانتزعها من نواب الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين⁽⁸⁾، وفي سنة 430هـ/1039م فيها التقى الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين، والملك طغرل بك السلجوقي، ومعه أخوه داود في شعبان، فهزمها مسعود، وقتل من أصحابها خلقاً كثيراً⁽⁹⁾.

رابعا . الغزنويون، والسلاجقة :

حسب ابن كثير، في سنة 432هـ/104م عظم شأن السلجوقية، وارتفع شأن ملكهم طغرل بك، محمد، وأخيه جغري بك داود، وهما ابنا ميكائيل بن سلجوق بن دقاق، وقد كان جدّهم دقاق هذا من مشايخ الترك القدامى

الذين لهم الرّأي، والمكيدة، والمكانة عند ملكهم الأعظم، ونشأ ولده سلجوق نجيباً شهماً، فقدّمه الملك، ولقبه "شباشي"، فأطاعته الجيوش، وانقادت له النّاس، بحيث تخوّف منه الملك، وأراد قتله، فهرب منه إلى بلاد المسلمين، فأسلم، فازداد عزّاً، وعلواً، ثمّ توفيّ عن مائة وسبع سنين، وخلف أرسلاّن، وميكائيل، وموسى، فأما ميكائيل، فإنّه اعتنى بقتال الكفار من الأتراك، حتّى قُتل شهيداً، وخلف ولديه: طغرل بك، محمّد، وجفري بك، داود، فعظّم شأنهما في بني عمّهما، واجتمع عليهما التّرك من المؤمنين، وهم التّرك الذين يقال لهم: التّركمان" هم السّلاجقة بنو سلجوق جدّهم هذا، ففتحوا بلاد خراسان كلّها بعد موت محمود بن سبكتكين، وكان يتخوّف منهم محمود بعض التخوف، فلمّا توفيّ قام ولده مسعود من بعده قاتلهم، وقاتلوه مراراً، فكانوا يهزمونه في أكثر المواقف، واستكمل لهم ملُك خراسان بأسرها، ثمّ قصدهم مسعود في جنود يضيق بهم الفضاء، فكسروه فيها، وكبسه مرّة داود، فانهزم عنه مسعود، فاستحوذ على حواصله، وخيامه، وجلس على سريره، وفرّق الغنائم على جيشه(10).

وحسب ابن خلّكان"كان هؤلاء القوم قبل استيلائهم على الممالك يسكنون فيها وراء النّهر في موضع بينه، وبين بخارى مسافة عشرين فرسخاً، وهم أتراك، وكانوا عددًا يجلّ عن الحصر، والإحصاء، وكانوا لا يدخلون تحت طاعة سلطان، وإذا قصدهم جمعٌ لا طاقة لهم بهم دخلوا المفاوز، وتحصّنوا بالزّمال، فلا يصل إليهم أحد، فلمّا عبر السّطان محمود بن سبكتكين إلى ماوراء النّهر، وكان سلطان خراسان، وغزنة، وتلك النّواحي، وجد زعيم بني سلجوق قوي الشوكة كثير العدة يتصرّف في أمره على المخاتلة، والمراعة، ويتنقل من أرض إلى غيرها، ويُغيّر في أثناء ذلك على تلك البلاد، فاستماله، وجذبه، ولم يزل يخدمه، حتّى أقدمه إليه، فأمسكه، وحمله إلى بعض القلاع، واعتقله، وخرج في أعمال الحيلة، وتدبير أمر أصحابه، واستشار أعيان دولته في شأنهم، فمنهم من أشار بإغراقهم في نهر جيحون... وآخر ما وقع الاتفاق عليه أن يعبّر بهم جيحون إلى أرض خراسان، ويفرّقهم في النّواحي، ويضع عليهم الخراج، ففعل ذلك، فدخلوا في الطاعة، واستقاموا، وأقاموا على تلك الحالة مدّة، فطمع فيهم العمال، وظلموهم، وامتندت إليهم أيدي النّاس، وأخذوا من أموالهم ومواشيهم... ثمّ مضى بعضهم إلى بلاد كرمان، وملكها يومئذ الأمير "أبو الفوارس بن بهاء الدّولة بن بويه"، فأقبل عليهم، وخلع على وجوههم، وعزم على استخدامهم، فلم يستتمّوا عشرة أيام حتّى مات أبو الفوارس، وخافوا من الذّيلم، وهم أهل ذلك الإقليم، فبادروا إلى قصد أصبهان، ونزلوا بظهرها، فرغب صاحبها في استخدامهم، فكتب إليه السّطان محمود يأمره بالإيقاع بهم، ونهبهم(11).

وتواقفوا، فقتل من الطائفتين جماعة، وقصد الباقون أذربيجان، وانحاز الذين بخراسان إلى جبل قرب خوارزم، فجرّد السّطان محمود جيشاً أرسله في طلبهم، فتنبّعوهم في تلك المفاوز مقدار عامين، ثمّ قصدهم محمود بنفسه، ولم يزل في إثرهم حتّى شرّدهم، وشنتهم، ثمّ توفيّ محمود، فقام بعده ولده مسعود، فاحتاج إلى الاستظهار بالجيوش، فكتب إلى الطائفة التي بأذربيجان؛ لتتوجّه إليه، فجاءه منهم ألف فارس، فاستخدمهم، ومضى بهم إلى خراسان، فسأله في أمر الباقين الذين شنتهم والده محمود، فراسلهم، وشرط عليهم لزوم الطاعة، فأجابوه إلى ذلك، وأمنّهم، وحضروا غليه، ورثبهم على ما كان عليه والده قد رثبهم أولاً، ثمّ دخل مسعود بلاد الهند لاضطراب أحوالها عليه، فخلت لهم، وعادوا إلى الفساد، وحدث كلّ هذا، والسّطان طغرل بك، وأخوه داود في موضعهم من نواحي ما وراء النّهر(12).

وجرت بينهم وبين ملكشاه صاحب بخارى وقعة عيمة قُتل فيها خلقاً كثيراً من أصحابها، ودعت حاجتها إلى اللّحاق بأصحابها الذين بخراسان، فكتبوا مسعوداً، وسأله الأمان، والاستخدام، فحبس الرّسُل، وجرد جيوشاً لموقعة من بخراسان منهم، فكانت مقتلة، ثمّ اعتذروا إلى مسعود، وبذلوا له الطاعة، وضمنوا له أخذ خوارزم من صاحبها، فطيب قلبهم، وأفرج عن الرّسُل الواصلين من جهة ما وراء النّهر، وسأله أن يفرج عن زعيمهم الذي اعتقله أبوه محمود أول الأمر، فأجابهم إلى سؤالهم، وأثر له من تلك القلعة، وحمل إلى بلخ مقيداً، فاستاذن مسعود في مراسلة ابني أخيه طغرل بك، وداود، فراسلهم، وحاصل الأمر أنّهما وصلا إلى خراسان، ومعهما جيش كبير، فاجتمع الجميع، وجرّت لهم مع ولاة خراسان، ونواب مسعود في البلاد أسباب(13).

المهم أنّهم استظفروا، وظفروا بهم، وأول ما ملكوه طوس سنة 429/108م، ثمّ نيسابور، وأخذ داود أخ طغرل بك "بلخ"، وهو والد ألب أرسلان، واتّبع لهم، واقتحموا البلاد، وانحاز مسعود إلى غزنة، وتلك النّواحي، وكانوا يخطبون له أول الأمر، وعمّ أمرهم إلى أن راسلهم الإمام القائم بأمر الله، وكان الرّسول الذي أرسله إليهم هو القاضي أبا الحسن، علي بن محمّد بن حبيب الماوردي في 6 رمضان 447/1056م،

وأوصاهم بتقوى الله تعالى، والعدل في الرعيّة، والرّفق بهم، وبتّ الإحسان إلى النّاس...توجّه طغرل بك إلى بغداد سنة 455/هـ 1064م⁽¹⁴⁾.

وحسب السيّوطي " ولم يزل أمر القائم بأمر الله مستقيماً إلى أن قبض عليه في سنة 450/هـ 1059م، والسبب أن أرسلان التّركي، المعروف بالباساسيري كان قد عظم أمره...وانتشر ذكره، وتهيبته أمراء العرب، والعجم، ودُعي له على المناير، وجبى الأموال، وخرب القرى، ولم يكن القائم بأمر الله يقطع أمراً بدونه، ثمّ صحّ عنده أنه سوء عقيدته، وبلغه أنه عزم على نهب دار الخلافة، والقبض على الخليفة، فكتب الخليفة أبا طالب، محمّد بن مكيال سلطان العزّ، المعروف بطغرل بك، وهو بالرّي يستنهضه في القدوم، ثمّ أحرقت دار الباساسيري، وقدم طغرل بك سنة 447/هـ 1056م، فذهب الباساسيري إلى الرّحبة، وتلاحق به خلقاً من الأتراك، وكاتب صاحب مصر، فأمدّه بالأموال، وكاتب أخ طغرل بك، وأطمعه بمنصب أخيه، فخرج، واشتغل به طغرل بك، ثمّ قدم الباساسيري بغداد سنة 450/هـ 1059م، ومعه الرّيات المصريّة، ووقع القتال بينه، وبين الخليفة⁽¹⁵⁾.

ودعى لصاحب مصر المستنصر بجامع المنصور، وزيد في الأذان "حيّ على خير العمل"، ثمّ خطب له في كلّ الجوامع، إلّا جامع الخليفة، ودام القتال شهراً، ثمّ قبض الباساسيري على الخليفة في ذي الحجة، وسيره إلى غاية، وحبسها بها، وأمّا طغرل بك، فظفر بأخيه، وقتله، ثمّ كاتب متولّى غاية في ردّ الخليفة إلى داره مكرماً، فحصل الخليفة في مقرّ عزّه في الخامس والعشرين ذي القعدة سنة 451/هـ 1060م، ودخل بأبته عزيمة، والأمراء، والحجاب بين يديه، وجّهز طغرل بك جيشاً، فحاربوا الباساسيري، فظفروا به، فقتل، وحُمل رأسه إلى بغداد، ولمّا رجع الخليفة إلى داره لم ينم بعدها، إلّا على فراش مصلاه، ولزم الصيام، والقيام، وعفا عن كلّ من أذاه، ولم يسترد شيئاً؛ ممّا نهب من قصره، إلّا بالثمن، وقال: "هذه أشياء احتسبناها عند الله"، ولم يضع رأسه بعدها على مخدّة، ولمّا نهب قصره لم يوجد فيه شيء من آلات الملاهي⁽¹⁶⁾.

هناك أحداث مهمّة في تاريخ السلاجقة مثلتها عدّة تواريخ كالآتي:

وفي سنة 402/هـ 1012م، ورد رسول أمير مكة على السّلطان ألب أرسلان بأنّه أقام الخطبة العباسيّة، وقطع خطبة المستنصر المصري، وترك الأذان بحي على خير العمل، فأعطاه السّلطان ثلاثين ألف دينار، وخُلعا، وسبب ذلك المصريّين بالقحط المفرط سنين متوالية حتّى أكل النّاس بعضهم بعضاً، وفي سنة 403/هـ 1013م خطب بحلب القائم، والسّلطان ألب أرسلان؛ لمّا رأى قوة دولتهما، وإدبار دولة المستنصر، وفيها كانت وقعة عظيمة بين الإسلام، والرّوم، ونصر المسلمون، ولله الحمد، ومقدّمهم السّلطان ألب أرسلان، وأسر ملك الرّوم، ثمّ أطلقه بمال جزيل، وهادنه خمسين سنة، وفي سنة 406/هـ 1016م كان الغرق العظيم ببغداد، وزادت دجلة ثلاثين ذراعاً، ولم يقع مثل ذلك قطّ، وهلكت الأموال، والأنفس، والدواب، وركبت النّاس في السّفن، وأقيمت الجمعة في الطيار على وجه الماء مرتين، وقام الخليفة يتضرّع إلى الله⁽¹⁷⁾.

وفي سنة 409/هـ 1019م فرغت المدرسة النّظاميّة ببغداد، وفرّر لتدريسها الشيخ أبو إسحاق الشّيرازي، فاجتمع النّاس، فلم يحضر، واختفى، فدرّس ابن الصّباغ صاحب الشّامل، ثمّ تطفوا بالشيخ أبي إسحاق، حتّى أجاب، ودرس، وفي سنة 451/هـ 1060م كان عقد الصّالح بين السّلطان إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة، وبين السّلطان جغري بك بن سلجوق أخ طغرل بك صاحب خراسان بعد حروب كثيرة، ثمّ مات جغري بك في السنّة، وأقيم مكانه ابنه ألب أرسلان⁽¹⁸⁾.

وفي سنة 454/هـ 1063م زوج الخليفة ابنته لطغرل بك بعد أن دافع بكلّ ممكن، وانزعج، واستعفى، ثمّ لأنّ لذلك برغم منه، وهذا أمر لم ينله أحد من ملوك بني بويه مع قهرهم الخلفاء، وتحكّمهم فيهم، ثمّ قدم طغرل بك سنة 455/هـ 1064م، فدخل بابنة الخليفة، وأعاد المواريث، والمكوس، وضمن بغداد بمائة وخمسين ألف دينار، ثمّ رجع إلى الرّي، فمات بها في رمضان، وأقيم في السّلطنة بعده ابن أخيه عضد الدّولة ألب أرسلان صاحب خراسان، وبعث إليه القائم بالخلع، والتّقليد، وقال الذهبي: أنّه هو أول من ذكر بالسّلطان على مناير بغداد، وبلغ ما لم يبلغه أحد من الملوك، وافتتح بلاداً كثيرة من بلاد النّصارى، واستوزر نظام الملك⁽¹⁹⁾، فأبطل ما كان عليه الوزير قبله عميد الملك من سبّ الأشعريّة، وانتصر للشافعيّة، وأكرم إمام الحرمين، وأبا القاسم الفشيري، وبنى النّظاميّة، قيل: وهي أول مدرسة بنيت للفقهاء⁽²⁰⁾.

وفي سنة 467/هـ 1075م أعيدت الخطبة للعبيدي بمكة، وفيها جمع نظام الملك المنجمين، وجعلوا النّيروز أول نقطة من الحمل، وكان قبل ذلك عند حلول الشّمس نصف الحوت، وصار ما فعله النّظام مبدأ التّقاويم، وفي 481/هـ 1089م مات ملك غزنة المؤيد إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين، وقام مقامه ابنه جلال

الدّين مسعود، وفي سنة 1092/484م قدم السّلطان ملكشاه⁽²¹⁾ بغداد، وأمر بعمل جامع كبير بها، وعمل الأمراء حوله دورا ينزلونها، ثمّ رجع إلى أصبهان، وعاد إلى بغداد سنة 1093/485م عازما على الشرّ، وأرسل إلى الخليفة يقول: لا بدّ أن تترك لي بغداد، وتذهب إلى أيّ بلد شئت"، فانزعج الخليفة، وقال: "أمهلني، ولو شهرا"، قال: "ولا ساعة واحدة"، فأرسل الخليفة إلى وزير السّلطان يطلب منه المهلة إلى عشرة أيام، فاتفق مرض السّلطان، وموته، وعدّ ذلك كرامة للخليفة⁽²²⁾.

وقيل: إنّ الخليفة جعل يصوم، فإذا أفطر جلس على الرّماد، ودعا على ملكشاه، فاستجاب الله دعاءه، وذهب إلى حيث ألفت، ولما مات كتبت زوجته "تركان خاتون" موته، وأرسلت إلى الأمراء سرّاً، فاستحلفتهم لولده محمود، وهو ابن خمس سنين، فحلفوا له، وأرسلت إلى المقندي في أنّ يُسلّطه، فأجاب، ولقبه "ناصر الدّنيا والدّين"، ثمّ خرج عليه أخوه بركياروك⁽²³⁾ بن ملكشاه، فقّده الخليفة، ولقبه "ركن الدّين"، وذلك في المحرم سنة 1095/487م، وعلم الخليفة على تقليده، ثمّ مات الخليفة من الغد فجأة، فقيل: إنّ جاريته شمس النّهار سمّته، وبويع لولده المستظهر، وفي سنة 1096/488م قُتل السّلطان أرسلان أرغون بن ألب أرسلان السلجوقي صاحب خراسان، فتملكها السّلطان بركياروك، ودانت له البلاد، والعباد⁽²⁴⁾.

وفي سنة 1099/492م خرج محمّد بن ملكشاه على أخيه السّلطان بركياروك، فانصر عليه، فقّده الخليفة، ولقبه "غيث الدّنيا والدّين"، وخطب له ببغداد، وفي سنة 1104/497م وقع الصّح بين السّلطانين محمّد، وبركياروك، وسببه أنّ الحروب لما تطاولت بينهما، وعمّ الفساد، وصارت الأموال منهوبة، والدّماء مسفوكة، والبلاد مخربة، والسّلطنة مطموعا فيها، وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين دخل العقلاء بينهما في الصّح، وكُتبت العهود، والأيمان، والمواثيق، وأرسل الخليفة خلع السّلطنة إلى بركياروك، وأقيمت له الخطبة ببغداد، وفي سنة 1105/498م مات السّلطان بركياروك، فأقام الأمراء بعده ولده جلال الدّولة ملكشاه، وقّده الخليفة، وخطب له ببغداد، وله دون خمس سنين، فخرج عليه ابن عمّه محمّد، واجتمعت الكلمة عليه، فقّده الخليفة، وعاد إلى أصبهان سلطانا متمكنا مهيبا كثير الحيوش، وفيها كان ببغداد جُدري مفرط، مات فيه خلق من الصّبيان لا يحصون، وتبعه وباء عظيم، وفي سنة 1139/533م استولى الأمراء على غلات البلاد، وعجز السّلطان مسعود، ولم يبق له إلاّ الاسم، وتضعض أيضا أمر السّلطان "سنجر"، وتمكّن الخليفة المقتفي، وزادت حرمة، وعلت كلمته، وكان ذلك مبدأ صلاح الدّولة العباسيّة⁽²⁵⁾.

وفي سنة 1147/541م جلس الواعظ ابن العبادي، فحضر السّلطان مسعود، وتعرّض بذكر مكس البيع، وما جرى على النّاس، ثمّ قال: "يا سلطان العالم، أنت تهب في ليلة لمطرب بقدر هذا الذي يتخذ من المسلمين، فاحسبني ذلك المطرب، وهبه لي، واجعله شكرا لله بما أنعم عليك، فأجاب، ونودي في البلاد بإسقاطه، وطيف بالألواح التي نقش عليها تزكّ المكوس، وفي سنة 1154/548م خرجت الغزّ على السّلطان سنجر، وأسروه، وأذاقوه الدّلّ، وملكوا بلاده، وأبقوا الخطبة باسمه، وبقي معهم صورة بلا معنى، وصار يبكي على نفسه، وله اسم السّلطنة، وراتبه في قدر راتب سائس من سائسته، وفي سنة 1195/590م مات السّلطان طغرل بك شاه بن أرسلان بن طغرل بك بن محمّد بن ملك شاه، ومدة دولتهم مائة وستون سنة⁽²⁶⁾.

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ج 6، ص 333.

(2) ابن كثير: نفس المصدر، ج 6، ص 45.

(3) ابن كثير: نفس المصدر، ص 407.

(4) ابن كثير: نفس المصدر، ص 409.

(5) ابن كثير: نفس المصدر، ص 426.

(6) ابن كثير: نفس المصدر، ص 437؛ وفي سنة 1021/411م في رمضان منها تصدّق مسعود بن محمود بن سبكتكين بألف درهم، وأجرى أرزاقا كثيرة للفقهاء، والعلماء ببلاده على عادة أبيه من قبله، وفتح بلدانا كثيرة، واتسعت مملكه جدّاً، وعمّ شأنه، وقويت أركانه، وكثرت جنوده، وأعوانه. أنظر. ابن كثير، نفس المصدر، ص 425.

(7) ابن كثير: نفس المصدر، ص 432.

(8) ابن كثير: نفس المصدر، ص 440.

(9) ابن كثير: نفس المصدر، ص 441.

(10) ابن كثير: نفس المصدر، ص 445؛ في سنة 1036/427م فيها بدأ مُلك السلاجقة، وفيها استولى ركن الدّولة، أبو طالب، طغرل بك، محمّد بن مكائيل بن سلجوق على نيسابور، وجلس على سرير مُلكها، وبعث أخاه داود إلى سائر بلاد خراسان، فملكها، وانتزعها من نواب الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين... في سنة 1039/430م فيها التقى الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين، والملك طغرل بك السلجوقي، ومعه أخوه داود في شعبان، فهزما مسعود، وقتل من أصحابهما خلقا كثيرا. أنظر، ابن كثير، ج 6، ص 440، 441.

(11) ابن خلّكان: وفيات الأعيان، ج 5، ص 64.

(12) ابن خلّكان: نفس المصدر، ص 65.

- (13) نفسه .
- (14) ابن خلكان: نفس المصدر، ص 66 ؛ طغرل بك، أبو طالب، محمد بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق، الملقب، ركن الدين طغرل بك، أول ملوك السلجوقية... وتوفي طغرل بك يوم الجمعة 18 رمضان 455/1064م بالزري، وعمره 70 سنة، ونُقل إلى مرو، ودُفن عند قبر أخيه داود. أنظر، ابن خلكان: نفس المصدر، ص 64-67 .
- (15) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 305 ، 306 .
- (16) السيوطي: نفس المصدر، ص 306 .
- (17) السيوطي: نفس المصدر، ص 307 ، 308 .
- (18) السيوطي: نفس المصدر، ص 306 ، 307 .
- (19) نظام الملك الطوسي، الوزير نظام الملك، أبو علي، الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس، الملقب نظام الملك، قوام الدين الطوسي، من ناحية طوس، تسمى الراذ كان، كان من أولاد الدهاقين، واشتغل بالحديث، والفقهاء، ثم اتصل بخدمة علي بن شاذان المعتمد عليه بمدينة بلخ، وكان يكتب له، فكان يصادره في كل سنة، فهرب منه، وقصد داود بن ميكائيل بن سلجوق، والد السلطان ألب أرسلان، فظهر له منه النصيح، والمحبة، فسلمه إلى ولده ألب أرسلان، وقال له: اتخذه والدا، ولا تخالفه فيما يشير به، فلما ملك ألب أرسلان دبّر أمره، فأحسن التدبير، وبقي في خدمته عشر سنوات، فلما مات ألب أرسلان، وازدحم أولاده على الملك، وطّد المملكة لولده ملكشاه، فصار الأمر كله لنظام الملك، وليس للسلطان، إلا التّخت، والصيد، وأقام على هذا عشرين سنة، وكان مجلسه عامرا بالفقهاء، والصوفية، وكان كثير الإنعام على الصوفية. أنظر، ابن خلكان: وفيات، م2، ص 129 .
- (20) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 307 .
- (21) ملكشاه، أبو الفتح، ملكشاه بن ألب أرسلان، محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق، الملقب جلال الدولة، وليّ الأمر من بعد والده بوصية منه، ووصى والده الوزير نظام الملك، أبا علي، الحسن على تفرقة البلاد بين أولاده، ويكون مرجعهم إلى ملكشاه، وكان من أحسن الملوك سيرة، حتى كان يُلقب بالسلطان العادل، ولد في التاسع من جمادى الأولى سنة 447هـ/1056م، توفي في بغداد السادس عشر شوال سنة 485هـ/1093م، وحمل تابوته إلى أصفهان، ودفن بها في مدرسة عظيمة موقوفة على طائفة الشافعية والحنفية. أنظر، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص 283 وما بعدها.
- (22) السيوطي: نفس المصدر، ص 310 ، 311 .
- (23) بركياروق السلجوقي، أبو المفطر بركياروق، الملقب، ركن الدين، ابن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق، الملقب، شهاب الدولة مجد الدولة، أحد ملوك السلاجقة، ولد بعد موت أبيه، ودخل سمرقند، ودخل بخارى، وغزا بلاد ما وراء النهر، وله أخوه السلطان سنجر، نائبه على خراسان، وفي محاربتة قتل عمه تاج الدولة نثش بن ألب أرسلان، ولد سنة 474هـ/1082م، وتوفي في ربيع الآخر 498هـ/1105م، وأقام في سلطنته 12 سنة. أنظر، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص 268 .
- (24) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 310 ، 311 .
- (25) السيوطي: نفس المصدر، ص 312-318 .
- (26) السيوطي: نفس المصدر، ص 318-328 .

خامساً . الطولونية، والإخشيدية في مصر، وبلاد الشام:

تنتسب الدولة الطولونية إلى أحمد بن طولون، الأمير أبو العباس أحمد بن طولون صاحب الديار المصرية، والشامية، والثغور كان المعترف بالله قد ولّاه مصر، ثم استولى على دمشق، والشام، وأنطاكية، والثغور في مدة انشغال الموفق، أبي طلحة، أبي أحمد بن المتوكل، وكان نائباً عن أخيه المعتمد على الله الخليفة، وهو والد المعتضد بالله بحرب الزنج... وكان أحمد عادلاً صادقاً شجاعاً متواضعاً حسن السيرة صادق الفراسة يباشر الأمور بنفسه، ويعمر البلاد، ويتفقد أحوال رعاياه، ويحب أهل العلم، وكانت له مائدة يحضرها كل يوم الخاص، والعام، وكان له ألف دينار في كل شهر للصدقة... وكان يحفظ القرآن، وبنى الجامع المنسوب إليه بين القاهرة، ومصر في 259هـ/873م شرع في عمارته سنة 264هـ/878م، وفرغ منه سنة 266هـ/880م، وأنفق في عمارته مائة ألف وعشرين ألف دينار، وكان أبوه مملوكاً أهده نوح بن أسد الساماني عامل بخارى إلى المأمون في جملة رقيق حمله إليه في سنة 200هـ/816م، ومات طولون سنة 240هـ/855م⁽¹⁾.

وكانت ولادة ولده أحمد بسامراء في يوم 23 رمضان سنة 210هـ/826م، ويقال: إن طولون تبناه، ولم يكن ابنه، ودخل مصر لتسع بقين من شهر رمضان سنة 254هـ/868م، وتوفي بمصر، ذي القعدة سنة 270هـ/884م، بزلق الأمعاء، وطولون اسم، تركي⁽²⁾، وبدأ ظهور الطولونيين في العصر العباسي الثاني؛ إذ أرسل المعتز إلى أحمد بن طولون أن يذهب إلى المستعين، فيقتله، فقال: "والله، لا أقتل أولاد الخلفاء"، فندب له سعيد الحاجب، فذبحه في ثالث شوال 252هـ/866م، وعمره 31 سنة⁽³⁾، وفي عهد المعتز بالله تنكر المعتز لبغا، وآثر صالحاً، وبايكباك، وصير إلى بايكباك أعمال المعاون بمصر، فولّاه بايكباك من قبيلة أحمد بن طولون، فقدم أحمد بن طولون الفسطاط في رمضان⁽⁴⁾.

وفي سنة 257هـ/871م أيام أحمد المعتمد على الله وردت كتب المعتمد إلى أحمد بن طولون كامل مصر بأمره برد أعمال الخراج إلى أحمد بن محمد بن المدبر، وكان محبوباً في يده، ومحمد بن هلال يتولى الخراج... وتوفي بايكباك التركي، فصير المعتمد ما كان إليه من أعمال مصر، وغيرها إلى يارجوج التركي، وكتب هذا الأخير إلى أحمد بن طولون التركي عامل مصر بإقراره على ما كان يتولى، وحمل أحمد بن

طولون ما كان حاصلًا في بيت المال بمصر إلى أمير المؤمنين المعتمد، فكان مبلغه ألفي ألف، ومائة ألف درهم... وكتب المعتمد بالله إلى أحمد بن طولون بولاية الإسكندرية، فشخص إليها رمضان 257هـ/871م⁽⁵⁾. وفي سنة 257هـ/871م وجه أحمد بن طولون رجلاً من الأتراك يقال له: مطعان في 258هـ/872م في ألف فارس مع حاج مصر ص 476، وفيها أيضا أخرج أحمد بن طولون الطالبيين من مصر إلى المدينة، وفي نفس السنة وقع الوباء بالعراق، فمات خلقا كثيرا⁽⁶⁾، وفي سنة 266هـ/888م اشتدّ تخيل المعتمد من أخيه الموفق، فإنه خرج عليه في 264هـ/886م، ثم اصطلحا، فلما اشتدّ تخيله منه كاتب المعتمد بن طولون نائبه بمصر، واتفقا على أمر... وهو أول خليفة فُهر، وحُجر عليه، ووُكل به، قد نكث الموفق بأمر المؤمنين، فأخلعوه من العهد، إلا القاضي بكار بن قتيبة، فإنه قال: أنت أوردت عليّ من المعتمد كتابا بولايته العهد، فأورد عليّ كتابا آخر منه بخلعه، فقال: إنه محجور عليه، ومقهور، فقال: لا أدري، فقال ابن طولون: "غرك الناس بقولهم ما في الدنيا مثل بكار، أنت شيخ قد خرقت، وحبسه، وقبده، وأخذ منه جميع عطاياه من سنين، فكانت عشرة آلاف دينار، فقيل: إنها وجدت في بيت بكار بختها، وبلغ الموفق ذلك، فأمر بلعن ابن طولون على المنابر⁽⁷⁾.

وفي سنة شعبان 270هـ/884م أعيد المعتمد إلى سامراء، ودخل بغداد، ومحمد بن طاهر بين يديه بالحربة، والجيش في خدمته، كأنه لم يحجر عليه، ومات ابن طولون 270هـ/884م، فولّى الموفق ابنه "أبا العباس" أعماله، وجهّزه إلى مصر في جنود العراق، وكان خمارويه بن أحمد بن طولون أقام على ولايات أبيه بعده، فوقع بينه، وبين أبي العباس ابن طولون وقعة عظيمة، وكان النصر للمصريين⁽⁸⁾ وفي سنة 282هـ/895م زُفت إليه قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون، فدخل عليها في ربيع الأول، وكان في جهازها أربعة آلاف تكة مجوهرة، وعشرة صناديق جوهر، وفي 283هـ/896م كتب إلى الأفاق بأن يورث ذوو الأرحام، وأن يُبطل ديوان المواريث، وكثر الدعاء للمعتد⁽⁹⁾.

وفي سنة 333هـ/945م رجع المتقي إلى بغداد، وخلع من الخلافة، وسُملت عيناه، وكان المتقي وهو مقيم بالموصل، قد أرسل إلى الإخشيد محمد بن طُغج⁽¹⁰⁾ صاحب الديار المصرية، والبلاد الشامية، فأقبل إليه، وقدم عليه في المنتصف من محرّم من هذه السنة، وخضع للخليفة غاية الخضوع، وكان يقوم بين يديه كما يقوم الغلمان، ويمشي، والخليفة راكب، ثم عرض عليه أن يسير معه إلى الديار المصرية، ويقوم في بلاد الشام، فأبى ذلك عليه، فأشار عليه بالمقام بمكانه الذي هو فيه، ولا يذهب إلى توزون، ومكره، وخديعته، فلم يقبل، وكذلك أشار على الوزير أبي الحسن بن مقله، فلم يسمع، فأهدى ابن طُغج للخليفة هدايا كثيرة فاخرة، وكذلك إلى الأمراء، والكبراء، والوزير⁽¹¹⁾.

وفي سنة 333هـ/945م كتب سيف الدولة، علي بن أبي الهيجاء، عبد الله الإخشيد إلى حلب، فتسلّمها من يانس المؤنسي، فانهزم كافور الإخشيد، واستولى سيف الدولة على حمص، ثم ركب إلى دمشق، فحاصرها، فلم يفتحها أهلها له، فرجع عنها، وقصده الإخشيد بجيوش كثيفة، فالتقى بقنسرين، فلم يظفر أحد منهما بالآخر، ورجع سيف الدولة إلى الجزيرة، ثم عاد إلى حلب، فاستقرّ ملكه بها، فقصدته الرّوم في جحافل عظيمة، فالتقى معهم، فظفر بهم، فقتل منهم خلقا كثيرا⁽¹²⁾، وفي سنة 334هـ/946م وقع بين معزّ الدولة، وبين ناصر الدولة بن حمدان، فخرج لقتاله، ومعه المطيع، ثم رجع، والمطيع معه كالأسير، وفيها مات إخشيد مصر، وهو محمد بن طغج الفرغاني، والإخشيد "ملك الملوك"، وهو لقب لكل من ملك فرغانة، كما أن الأصبهيد لقب ملك طبرستان، و"صول" ملك جرجان، و"خاقان ملك التّرك"، و"الأفشين" ملك أشروسنة، و"سامان" ملك سمرقند، وكان الأخشيد شجاعا مهيبا، وليّ مصر من قبل القاهر، وكان له ثمانية آلاف مملوك، وهو أستاذ كافور⁽¹³⁾.

وفي سنة 334هـ/946م توفيّ الإخشيد، محمد بن طُغج صاحب الديار المصرية، والبلاد الشامية، وكانت وفاته بدمشق، وله من العمر بضعا وستين سنة، وأقيم ولده أبو القاسم، وكان صغيرا، وأقيم كافور الإخشيد أتابعه، فكان يدبر الممالك بالبلاد كلها، واستحوذ على الأمور كلها، وسار إلى مصر، فقصد سيف الدولة بن حمدان دمشق، فأخذها من أصحاب الإخشيد، ففرح بها فرحا شديدا، واجتمع بمحمد بن محمد بن نصر الفارابي التّركي الفيلسوف بها، وركب سيف الدولة يوما مع الشريف العقيلي في بعض نواحي دمشق، فنظر سيف الدولة إلى الغوطة، فأعجبته، وقال: ينبغي أن تكون هذه كلها لديوان السلطان كأنه يعرض بأخذها من ملاكها، فأوغر ذلك العقيلي إلى أهل دمشق، فكتبوا إلى كافور الإخشيد⁽¹⁴⁾ يستجدونه، فأقبل إليهم في جيوش

كثيرة كثيفة، فأجلى عنهم سيف الدولة، وطرده عن حلب أيضا، واستتاب عنها، ثم كرّ راجعا، فاستتاب على دمشق بدرًا الإخشيدي، ويُعرف ببدير، فلمّا صار كافور إلى الدّيار المصريّة رجع سيف الدولة إلى حلب، فأخذها، كما كانت أولا له، ولم يبق له في دمشق شيء، وكافور هذا هو الذي هجاه المتنبّي، ومدحه أيضا⁽¹⁵⁾. وفي سنة 349هـ/961م في آخرها توفي أنوجور بن الإخشيد صاحب مصر، وقام بالأمر بعده أخوه علي، وفي سنة 356هـ/967م فيها توفي الإخشيدي مولى محمّد بن طُغج الإخشيد، وقد قام بالأمر من بعده مولاه لصغر أولاده، فملك كافور مصر، ودمشق، وناوأ سيف الدولة، وغيره⁽¹⁶⁾، ولمّا ملك القرامطة دمشق، ولم يحجّ أحد فيها، لا من الشّام، ولا من مصر، وعزموا على قصد مصر؛ ليملكوها، فجاء العبيديون، فأخذوها، وقامت دولة الرّفض في الأقاليم: المغرب، ومصر، والعراق، وذلك أنّ كافور الأخشيدي صاحب مصر، لمّا مات اختلّ النّظام، وقلّت الأموال على الجند، فكتب جماعة إلى المعزّ يطلبون منه عسكريا؛ ليسلموا إليه مصر في سنة 361هـ/972م⁽¹⁷⁾.

وما إن سمع سيف الدولة بوفاة الإخشيد 334هـ/945م، وقيام كافور بالوصاية على ابنه أبي الحسن علي، حتّى نقض الاتفاق بين الطرفين، وهجم على دمشق، واستولى عليها، ولكّنه هُزم أمام كافور، وعاد إلى الاتفاق السّابق، فوجّه سيف الدولة اهتمامه لردّ هجمات الرّوم، وانتصر في أغلبها، فكتب فيه الشّعراء أشعارًا، ومنهم المتنبّي، وأبي فراس الحمداني ابن عمّه، وشهدت هذه الدّولة مآثر الفيلسوف الفارابي، وبعد وفاة سيف الدولة 356هـ/967م، تعرّضت للضعف، وانتهت إلى الاعتراف بالخلافة الفاطميّة.

سادسًا . أخبار الدولة الحمدانيّة في مصر وبلاد الشّام:

تنسب إلى سيف الدّين الحمداني⁽¹⁸⁾ في سنة 334هـ/946م نشبت الحرب بين ناصر الدّولة بن حمدان، وبين معزّ الدّولة بن بويه، فركب ناصر الدّولة بعدما خرج معزّ الدّولة، والخليفة المطيع قرب بغداد، فدخل بغداد، وأخذ الجانب الشّرقي، ثمّ الغربي، وضعف أمر معزّ الدّولة، والدّيالمة الدّين معه، ثمّ مكر به معزّ الدّولة، وخدعه حتّى اسظنّهر عليه، وانتصر أصحابه، فنهبوا بغداد، وما قدروا عليه من أموال النّجار، وغيرهم، فكان قيمة ما أخذ أصحاب معزّ الدولة من النّاس عشرة آلاف دينار، ثمّ وقع الصّلع بين ناصر الدّولة، ومعزّ الدّولة، ورجع ابن حمدان إلى بلده الموصل، واستقرّ معزّ الدّولة بمدينة السلام⁽¹⁹⁾.

وفي سنة 335هـ/947م ولمّا كان اليوم الثّاني والعشرون من جمادى الآخرة حضر معزّ الدّولة إلى الحضرة، فجلس على سرير بين يدي الخليفة، وجاء رجلاّن من الدّيلم، فمدّ أيديهما إلى الخليفة، فأنزلاه عن كرسيه، وسحباه، فتحزبت عمّامته من حلّقه، ونهض معزّ الدّولة، واضطربت دار الخلافة، حتّى خلّص إلى الحرّيم، وتفاقم الحال، وسيق الخليفة ماشيا إلى دار معزّ الدّولة، فاعتقل بها، وأحضر أبو القاسم الفضل بن المقنن، فبويع بالخلافة، وسُملت عينا المستكفي، وأودع السجن، فلم يزل به مسجونًا، حتّى كانت وفاته في سنة 338هـ/950م⁽²⁰⁾.

وفي سنة 335هـ/947م استقرّ الأمر للخليفة المطيع لله في دار الخلافة، واصطلح معزّ الدّولة بن بويه، وناصر الدّولة بن حمدان على ذلك، ثمّ حارب ناصر الدّولة، تكين التّركي، فاقتتلا مرّات متعدّدة، ثمّ فرّ ناصر الدّولة بتكين، فسلمه بين يديه، واستقرّاه بالموصل، والجزيرة... وفي السّنة هذه استحوذ ركن الدّولة بن بويه على الرّي، وانتزعها من الخراسانيّة، فاتسّعت مملكة بني بويه، فإنّه صار بأيديهم أعمال الرّي، والجبل، وأصبهان، وفارس، والأهواز، والعراق، ويحمل إليهم ضمان الموصل، وديّار مضر، وربّيعة من الجزيرة، ثمّ اقتتل جيش معزّ الدّولة، وجيش أبي القاسم البريدي، فهزم أصحاب البريدي⁽²¹⁾.

وفي سنة 342هـ/954م فيها دخل سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب إلى بلاد الرّوم، فقتل منهم خلقًا كثيرًا، وأسر آخرين، وغنم أموالًا جزيلة، ورجع سالما غانما، وفي سنة 343هـ/955م فيها كانت وقعة بين سيف الدولة بن حمدان، وبين الدّمستق، فقتل خلقًا من أصحاب الدّمستق، وأسر جماعة من رؤساء بطارقتّه، وكان في جملة من قتل "قسطنطين بن الدّمستق"، وسبى خلقًا كثيرًا، وذلك في ربيع الأوّل من هذه السّنة، ثمّ جمع الدّمستق خلقًا كثيرًا، فالتقوا مع سيف الدولة في شعبان، فجرت بينهم حروب عظيمة، وقتال شديد، فكانت الدّائرة للمسلمين⁽²²⁾.

وفي سنة 347هـ/959م فيها تجهز معزّ الدّولة بن بويه لقتال ناصر الدّولة بن حمدان الذي بالموصل، فراسله سيف الدولة، والتزم له بأموال يحملها إليه كلّ سنة، ثمّ إنّه منع حمل ما اشترط على نفسه، فقصد معزّ الدّولة في السّنة الآتية، وفي سنة 347هـ/959م في محرّم منها، ركب معزّ الدّولة إلى الموصل، فأخذها من يد

ناصر الدولة إلى نصيبين، ثم إلى ميفارقين، ثم لحقه معز الدولة، فصار إلى أخيه سيف الدولة بحلب، ثم راسل سيف الدولة معز الدولة في المصالحة بينه، وبين أخيه ناصر الدولة، فوقع الصلح على حمل كل سنة ألفي ألف، وتسعمائة ألف، ورجع معز الدولة إلى بغداد بعد انعقاد الصلح⁽²³⁾.

وفي سنة 961/349م دخل سيف الدولة بن حمدان بلاد الروم، فقتل من أهلها خلقا كثيرا، وفتح حصونا، وأحرق بلادا كثيرة، وسبى، وغنم، وكثر راجعا، فرجعت عليه الروم الدرب، فمنعوه من الرجوع، ووضعوا السيف في أصحابه، فما نجا في ثلاثمائة فارس، إلا بعد جهد جهيد، وفيها مات أبو القاسم، عبد الله بن أبي عبد الله البريدي الذي كان صاحب الأهواز، وواسط أيضا، في سنة 964/353م فيها قصد معز الدولة الموصل، وجزيرة ابن عمر، فأخذها من يد ناصر الدولة بن حمدان، ثم سار إلى طلب ناصر الدولة، فكرر ناصر في جيش، قد هياه، فاسترجع الملك من يد معز الدولة، فعاد معز الدولة، فأخذ الموصل، وأقام بها، فراسله في الصلح بها⁽²⁴⁾، وفي سنة 965/354م فيها دخل سيف الدولة إلى بلاد الروم، فقتل، وسبى⁽²⁵⁾.

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص 173 .

(2) ابن خلكان، نفس المصدر، ص174 .

(3) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 269 .

(4) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج2 ، ص254 .

(5) اليعقوبي: نفس المصدر، ص447-475 .

(6) اليعقوبي: نفس المصدر، ص477 .

(7) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص273، 274 .

(8) السيوطي: نفس المصدر، ص 274 .

(9) السيوطي: نفس المصدر، ص ص 276 ، 277 .

(10) محمد بن أبي محمد طنج بن جف بن بلتكين، أبو بكر الإخشيد، وكان المعتصم بالله بن هارون الرشيد قد جلبوا إليه من فرغانة جماعة كثيرة، فوصفوا له جفت، وغيره بالشجاعة، والتقدم في الحروب، فوجه المعتصم من أحضرهم، فلما وصلوا إليه بالغ في إكرامهم، وأقطعهم قطائع بسر من رأى، وقطائعه جفت إلى الآن معروفة، وجاءته الأولاد، وتوفي جفت ببغداد ليلة قتل المتوكل الأربعاء 3 شوال سنة 247/861م ص56، فخرج أولاده إلى البلاد ينصرفون، ويطلبون لهم معاش، فأتصل طنج بن جفت بلؤلؤ غلام ابن طولون، وهو إذ ذاك مقيم بديار مصر، فاستخدمه على ديار مصر. أنظر، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص57؛ الإخشيد، محمد بن عبد الله بن طنج بن جفت، أبو بكر، الملقب بالإخشيد، ومعناه "ملك الملوك"، لقبه بذلك الراضي؛ لأنه كان ملك فرغانة، وكل من ملكها، كان يسمى الإخشيد. أنظر، ابن كثير: البداية والنهاية، ج6، ص 258 .

(11) ابن كثير: نفس المصدر، ص253 .

(12) ابن كثير: نفس المصدر، ص 255 .

(13) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 294 .

(14) كافر الإخشيد، أبو المسك، كافر بن عبد الله الإخشيد، وكان عبدا لبعض أهل مصر، ثم اشتراه أبو بكر، محمد بن طنج الإخشيد سنة 925/312م بمصر من محمود بن وهب بن عباس، وترقى عنده إلى أن جعله أتاك ولديه، ولما توفي الإخشيد تولى مملكة مصر، والشام ولده الأكبر، وهو أبو القاسم، أنوجور، ومعناه بالعربي محمود" بعقد الراضي له، وقام كافر بتدبير دولته أحسن قيام إلى أن توفي أنوجور يوم السبت 8 ذي القعدة سنة 961/349م، وحمل إلى القفس عند أبيه، وكانت ولادته بدمشق يوم الخميس 9 ذي الحجة سنة 319/931م، وتولى بعده أخوه أبو الحسن، علي، وملك الروم في أيامه حلب، والمصيصة، وطرسوس، فاستمر كافر على نيابته، وحسن إيالته إلى أن توفي سنة 966/355م، ثم استقل كافر بالمملكة، وأشير عليه بإقامة الدعوة لولد أبي الحسن بن علي بن الإخشيد، فاحتج بصغر سنه، وركب بالمطاردة، وأظهر خلعا جاءته من العراق، وكتبا بتكنيته، وركب بالخلع يوم الثلاثاء 10 صفر سنة 966/355م، وكان وزيره أبا الفضل، جعفر بن الفرات، وكان كافر يرغب في أهل الخير، ويعظمهم، وكان أسود اللون، واشتراه الإخشيد ب18دينار، وكان أبو الطيب، المتنبى قد فارق سيف الدولة بن حمدان مغاضبا له، وقصد مصر، ومدح كافر بأحسن المدح، وكانت بلاد الشام في مملكته أيضا مع مصر، وكان يدعى له على المنابر بمكة، وطرسوس، والمصيصة، وغيرها، وكانت أيامه سديدة جميلة، ووقع الخلاف فيمن يُنصب للأمر بعده إلى أن تقرر الأمر، وتراضت الجماعة بولده أبي الحسن، علي بن الإخشيد، وكانت ولاية كافر سنتين، و3 أشهر إلى سبعة أيام، وخطب لأبي الفوارس، أحمد بن علي بن الإخشيد يوم الجمعة 7 بقين من جمادى الأولى سنة 968/357م. أنظر، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص ص 99 ، 100 .

(15) ابن كثير: البداية والنهاية، ج6، ص 257 .

(16) ابن كثير: نفس المصدر، ص282-310 .

(17) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 296 .

(18) وفي سنة 967/356م توفي سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب، أبو الحسن، علي بن أبي الهيجاء، عبد الله بن حمدان بن حمدون التعلبي الربيعي، الملقب بسيف الدولة، أحد الأمراء الشجعان، والملوك الكثيرة الإحسان على ماكان فيه من تشيع، وقد ملك دمشق بعض الوقت...شاعره المتنبى، ومطربه، أبو نصر الفارابي، وكان كريما جوادا معطيا للجزيل، وسبب موته غسر البول، وتوفي بحلب، وحمل تابوته إلى ميفارقين، فنحن بها، وعمره 53 سنة، وقام بالملك بعده في حلب ولده سعد الدولة، أبو المعالي، شريف، ثم تغلب عليه مولى أبيه "فرعون" فأخرجه من حلب إلى أمه بميفارقين، وقيل: لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من الشعراء، وأجاز لجماعة من الكبار منهم كالممتنبي، والوأواء، وغيرهم، وولد سنة 914/301م، وملك حلب بعد 942/330م، وكان قبل ذلك يملك واسط قبل ذلك، ونواحيها، ثم تنقلت به الأحوال حتى ملك حلب، وانتزعاها من يد أحمد بن سعيد الكلابي صاحب الإخشيد، وملك دمشق في وقت، توفي في سنة 976/356م. أنظر، ابن كثير: البداية والنهاية، ج6، ص ص 309 ، 310 .

(19) ابن كثير: البداية والنهاية، ج6 ، ص256 .

(20) نفسه .

(21) ابن كثير: نفس المصدر، ص 264 .

(22) ابن كثير: نفس المصدر، ص ص 274 ، 275 .

(23) ابن كثير: نفس المصدر، ص ص 279 ، 280 .

(24) ابن كثير: نفس المصدر، ص ص 282 ، 292 .

(25) ابن كثير: نفس المصدر، ص277 .

سابعا . الخوارزمية، وأخبار المغول، واجتياحهم لبغداد:

تنتسب الدولة الخوارزمية إلى خوارزم شاه؛ إذ في سنة 1195/590م فيها ملك "خوارزم شاه تكش، ويقال له: "ابن الأصباغي" بلاد الرّي، وغيرها، واصطلح مع السلطان طغرل السلجوقي، وكان قد تسلّم بلاد الرّي، وسائر مملكة أخيه سلطان شاه، وخزائنه، وعمّ شأنه، ثمّ التقى هو، والسلطان طغرل في ربيع الأول من هذه السنة، فقتل السلطان طغرل، وأرسل رأسه إلى الخليفة، فعُلّق على باب التوبة عدّة أيام، وأرسل إلى الخليفة الخلع، والتقاليد إلى السلطان "خوارزم شاه"، وملك همذان، وغيرها من البلاد المتسعة⁽¹⁾.

وفي سنة 1201/596م توفي السلطان علاء الدّين خوارزم شاه تكش بن ألب أرسلان بن أّتسز، من ولد طاهر بن الحسين، وهو صاحب خوارزم، وبعض خراسان، والرّي، وغير ذلك من الأقاليم المتسعة، وهو الذي قطع دولة السلاجقة كان عادلا، حسن السيرة، وله معرفة جيدة بالموسيقى، حسن المعاشرة، فقيها على مذهب الإمام أبي حنيفة، ويعرف الأصول، وبني لأبي حنيفة مدرسة عظيمة، ودُفن بتربة بناها بخوارزم، وقام بالملك من بعده ولده "علاء الدّين، محمّد"، وكان يلقب ب"قطب الدّين"، وفيها، قُتل وزير السلطان خوارزم شاه⁽²⁾.

وفي سنة 1207/603م جرت أمور طويلة بالمشرق بين الغورية، والخوارزمية، وملك خوارزم شاه بن تكش بلاد الطالقان⁽³⁾، وفي سنة 1208/604م ملك خوارزم شاه، محمّد بن تكش بلاد ما وراء النهر من الخطا بعد حروب طويلة... وفيها غدر صاحب سمرقند، فقتل كلّ من كان يبليده من الخوارزمية، حتّى كان الرّجل يُقطع قطعتين، ويُعلق في الأسواق، كما تُعلق الأغنام، وعزم على قتل زوجته بنت خوارزم شاه، ثمّ رجع عن قتلها، وحصرها، وحبسها في قلعة، وضيق عليها، فلمّا بلغ الخبر إلى الملك خوارزم شاه سار إليه في الجنود، فأنزله، وحاصر سمرقند، فأخذها قهرا، وقتل من أهلها نحو من مائتي ألف، وأنزل الملك من القلعة، وقُتل صبيرا بين يديه، ولم يترك له نسلا، ولا عقبا، واستحوذ خوارزم شاه على تلك الممالك التي هناك⁽⁴⁾.

وفيها تحارب الخطا، وملك التّتر كشلر خان"، المتاخم لمملكة الصين، فكتب ملك الخطا إلى خوارزم شاه يستنجد على التّتر، ويقول متى غلبونا خالصوا إلى بلادك، وكذا وقع، وكتب التّتر إليه أيضا يستنصرونه على الخطا، ويقولون: "هؤلاء أعداؤنا، وأعداءك، فكن معنا عليهم"، فكتب إلى كلّ من الفريقين يُطيب قلبه، وحضر الوقعة بينهم، وهو متحيز عن الفريقين، فكانت الدائرة على الخطا، فهلكوا إلا القليل منهم، وغدر التّتر ما كانوا عاهدوا عليه خوارزم شاه، فوقعت بينهما الوحشة الأكيدة، وتواعدوا للقتال، وخاف منهم خوارزم شاه، وخرّب بلادا كثيرة متاخمة لبلاد كشلي خان؛ خوفا عليها أن يملكها، ثمّ إنّ جنكيز خان خرج على كشلي خان، فاشتغل بمحاربه عن محاربة خوارزم شاه⁽⁵⁾.

وفي سنة 1215/611م أرسل الملك خوارزم شاه أميرا من أخصاء أمراءه عنده في جيش، ففتح له كرمان، ومكران، وإلى حدود بلاد السند، وخطب لخوارزم شاه بتلك النواحي، وكان خوارزم شاه لا يُصيّف إلا بنواحي سمرقند؛ خوفا من التّتر أصحاب كشلي خان أن يتوثبوا على أطراف بلاده التي تتاخمهم، وفي سنة 1216/612م ملك السلطان شاه محمّد بن تكش مدينة غزنة بغير قتال⁽⁶⁾، وفي سنة 1218/614م قدم السلطان علاء الدّين خوارزم، محمّد بن تكش إلى همذان قاصدا في أربعمئة ألف، وقيل: في ستمائة ألف، فاستعدّ له الخليفة، وأرسل إلى الخليفة يطلب منه أن يكون على قاعدة من تقدّمه من الملوك السلاجقة، وأن يخطب له ببغداد على منابرها، فلم يُجبه الخليفة إلى ذلك، وفي سنة 1225/621م ملك غياث الدّين بن خوارزم شاه بلاد فارس مع ما في يده من مملكة أصفهان، وهمذان⁽⁷⁾.

هاجم جنكيزخان بجيشه الصين 1211م، واخترق الصور العظيم، واستولى على دولة كين الإمبراطورية الصينية الشماليّة، حتّى استولى على عاصمتها بكين، وفرّ إمبراطور الصين، فكانت هزيمة له كليّة 1216م، ثمّ وجّه جنكيزخان هجومه غربا، وقضى على دولة قاراخاني بعد قتله للخاقان كوشلوك خان 1218م، أرسل جنكيز وفدا من كبار المسلمين إلى السلطان "قطب الدّين، محمّد خوارزمشاه"، يطلب منه عقد معاهدة بين الدولتين التركيتين، وأرسل له الهدايا النفيسة، وطلب منه أن ييسر للتّجار التردّد بين المملكتين، فاستجاب له خوارزم شاه، وفي 1219م سافر تجار من مملكة جنكيزخان إلى أترار، وهي بلدة على نهر سيحون في حدود مملكة خوارزمشاه، فكتب واليها إلى خوارزمشاه، يطلب منه إرسال واليه على أترار؛ ليقتص منه، فكانت الإجابة قتل الرّسل، فقام جنكيزخان، يجمع عساكره، وعبر نهر سيحون، حتّى أتى بخارى، ودخل هو، وجنوده المدينة، فدكّوها، وملأوا الرّعب فيها في ذي الحجّة 616هـ/1220م، ثمّ ساروا نحو سمرقند، ودخلوها عنوة، وقتلوا فيها.

وجّه جنكيزخان عشرين ألفاً لفتح إيران، والقبض على خوارزمشاه، فعبر هؤلاء نهر جيحون، وكان خوارزمشاه مقيماً بقرهه، يستعدّ، فلما علم بقدم المغول، قصد نيسابور، فقصدها وراءه، فلما أحسّ خوارزمشاه بقرهه منه، هرب إلى مازندران، فاقتفى أثره المغول دون دخول نيسابور، وهكذا ظلّ خوارزمشاه منتقلاً من مدينة لأخرى، والمغول في أثره، حتى وصلوا إلى مرسى من بحر الخزر، ونزل إلى قلعة فيه، فعادوا عنه، وسار إلى مازندران، فملكها مع حصانتها، وبعدها قصد الجيش الرّي، ودخلها، ثمّ همذان، فطلب صاحبها الأمان، فأمنته هو، ومن معه.

استأنفت إلى قزوین، فدخلتها عنوة، ثمّ أدريجان، وواصلت بعد ذلك نحو تفلیس، حيث تجمّع الكرج هناك، فقتل منهم الكثير في 617هـ/1221م، وتلك الفرقة لما رجعت 618هـ/1222م، وفي طريقها دخلت مراغة، وملكها عنوة، ثمّ إربل، وبعدها همذان، ثمّ أدريجان زمنها إلى دربند شروان، فاستولوا على مدينة شمّخي عنوة، ثمّ خرجت منها إلى البلاد الشماليّة، وهي دشت قبجاق، وهي قبائل تركية، قاتلوا، ثمّ تفرّقوا، فورد منهم عدد غفير إلى الشام، ومصر، وهم الذين أسسوا دولة المماليك البحريّة فيما بعد في مصر، ثمّ قصدت بعد ذلك قبائل المغول بلاد الرّوس، فاتّفق هؤلاء مع فلول الففجاق، على أن يكونوا يداً واحدة، ولكنهم هُزموا أمام المغول، ثمّ واصلوا سيرهم نحو البلغار في 630هـ/1234م، فلما سمع أتراك البلغار بقرهه حاولوا وضع الكمائن دون فائدة.

في الوقت الذي أرسل فيه جنكيزخان فرقة من جيشه لطلب خوارزمشاه، وفتح إيران، وأدريجان، والقوقاز، والبلاد الشماليّة، بقي هو مقيماً في سمرقند، وهناك سيّر جيشاً آخر عليه أحد أولاده لمملكتي خراسان، وأفغانستان، فتدفّقوا نحو الهند، وعبروا النهر، وقصدوا بلخ، فطلب أهلها الأمان، فأمنوهم، وتسلموا المدينة 617هـ/1221م، ثمّ صاروا، يستولون على تلك البلاد دون صعوبة، حتى صار معظم الشرق الأوسط تحت حكم الإمبراطوريّة التركيّة المغوليّة من المحيط شرقاً إلى بلاد العراق غرباً، وبحر الرّوس، والبلغار، وجنوباً ببلاد الهند، وشمالاً البحر الشمالي.

مات جنكيزخان في 1227م بعد أن قسم ملكه العظيم بين ثلاث من أبنائه، جغتاي خان، جوجي خان أوقتاي خان، أمّا رابعهم، فهو تولي خان، فقد جعله خليفة له في عرش قراقورم، وفي الرّئاسة العامّة على إخوته الثلاثة كذلك، ثمّ تمّ إنتخاب أخيه أوقتاي خان خاقاناً أعظم في مجلس الأعيان 1229م، فاتّبع هذا الخاقان سنّة أبيه، فامتدّت الفتوحات في عهده إلى أرجاء واسعة، وأخضع البقيّة الباقيّة من الصين.

أرسل جيشاً لفتح أوربا على رأسه القائد باتوخان، وأنتخب كقائد سبوتاي؛ ليكون مستشاراً له، فتقدّم الجيش نحو روسيا، واخترق الغابات، حتى ظهر أمام مدينة ريزان، فهذّ سورها، وضرب حصونها، واستولى عليها 1237م، ثمّ موسكو، وتقدّم إلى كييف، واستولى عليها، وعندئذ انقسم الجيش إلى قسمين، أوّلها اتّجه نحو بلاد المجر تحت قيادة باتوخان، أمّا الثاني فنحو بولنده بقيادة بيدرا خان، وكلّ الجيشان بانتصارات، حتى التقيا سوياً في فيينا.

في هذه الأثناء وردت الأخبار بموت الخاقان الأعظم أوقتاي خان في ديسمبر 1241م، وقد خلف أوقتاي ابنه كيوك خان، فحكم عامين، ثمّ مات، وبموته اندلعت نيران الفتن الداخليّة، وكان وقودها المنافسة بين أسرتي أوقتاي خان، وجغتاي خان، وكانت نتيجة ذلك أن إنقلبت الملكية من أسرة أوقتاي إلى أسرة تولي، فالملك إلى مانجو خان، وبعد أن تمّ له الأمر، غزا بلاد التبت، وأخضعها، وعيّن أخاه قوبلاي خان حاكماً لبلاد الصين، وفتح جزيرة كيوشو من اليابان.

ولّى أخاه الثاني هولوكو قيادة حملة لغزو بلاد العراق وسوريا، وبعد وفاة مانجو خان، خلفه أخوه الأصغر أريق بوغا خان، وبقي سنة، فاختلف عليه الرّعاء من أطراف الإمبراطوريّة من بلاد المجر، وبولندا، وسوريا، وآسيا الصغرى، والعراق، والصين، واليابان، وقد انعقدت جمعية الأعيان لإنتخاب الخاقان، فنودي بقوبلاي خان خاقاناً على الإمبراطوريّة، فانقسمت الإمبراطوريّة إلى أربعة أقسام وهي: الإمبراطوريّة الشرقيّة عاصمتها بكين، وتشمل بلاد الصين، ومنغوليا التبت بعض الجزر اليابانيّة، حكمها أبناء قوبلاي خان وأحفاده. الإمبراطوريّة الشماليّة، تسمّى إمبراطوريّة آلتون أوردو، وتشمل حوض نهر الفولجا، وسواحل البحر الأسود الشماليّة، وبلاد روسيا الأصليّة، وأوربا الشرقيّة، ورثها أبناء جوجي خان، الإمبراطوريّة الغربيّة عاصمتها بغداد، وتضمّ بلاد فارس، والعراق، تتمنّع بنفوذ قوي في سوريا، وآسيا الصغرى، ورثها أبناء

هولاكو خان، وأحفاده، إمبراطورية تركستان، تشمل بلاد تركستان الشرقية، والغربية عدا خوارزم، وتسمى إمبراطورية جغتاي.

الاجتياح المغولي للمشرق الإسلامي وسقوط بغداد:

هولاكو هو الابن الأكبر لثولي بن جنكيزخان، فوضه الخان الأعظم بالمسير إلى غرب إيران، وقلاع الإسماعيلية، والشام، ومصر وبلاد الروم، والأرمن، وأمدّه بحرس خاص من جند جنكيزخان، وضمّ إليه جيشاً قويا، وسار مع نسائه، وأولاده، وعبيده، وفي توديع منكوفان الخان الأعظم له حرّضه على الالتزام بقوانين جنكيزخان، وأوصاه بالحسنى لمن استسلم له دون قتال، وسفك دماء كلّ من يتعرّض لك، ولجيشك، وعليك بتعمير الولايات الخربة الحال حتّى يصير لك فيها مصايفا، ومشاتيا، وشاورز زوجتك الرشيدة طوقوز خاتون في كلّ الأمور، والشؤون...

التزم هولاكو بكلّ وصايا الخاقان، ثمّ اتّجه إلى بغداد بعدما استولى المغول على بلاد ماوراء النهر، وخراسان، وفارس، وعزموا تنفيذ سياستهم؛ لبسط نفوذهم على بلاد المشرق؛ أي العراق، والاستيلاء على بغداد، والرّحف منها إلى الشام، ومصر، وتولّى هولاكو عملية الرّحف إلى بغداد، وكان لا بدّ له من تدمير قلاع الإسماعيلية في طريقه؛ حتّى يطمئنّ على قادته، وجنده من أعمال الإسماعيلية التّخريبية، وفعلا دمرها، وزحف هولاكو إلى همدان، وأكدّ سيطرة المغول عليها، وبعدها اتّجه إلى بغداد.

كانت تشهد اضطرابات، وخلافات بين الوزراء، والحجّاب، وولي العهد، واختلاف أهل بغداد مع بعضهم البعض، ولما عزم هولاكو على قصد بغداد، أرسل خطابا إلى الخليفة العباسي يهدّده، ويتوعّده، ويطالبه بتسليم بغداد"ولا بدّ أنّه قد بلغ سمعك على لسان الخاص، والعام ما حلّ بالعالم، والعالمين على يدّ الجيش المغولي منذ عهد جنكيزخان إلى اليوم، والذي حاق بأسر الخوارزمية، والسلاجقة، وملوك الديالمة، والأتابكة، وغيرهم؛ ممّن كانوا ذوي عظمة، وشوكة بحول الله القديم الدائم، ولم يكن باب بغداد مغلقا في وجه أية طائفة من تلك الطوائف، واتّخذوا منها قاعدة ملك لهم، فكيف يُغلق في وجهنا رغم مالنا من قدرة، وسلطان، فإذا أطاع الخليفة، فليهدم الحصون، ويردم الخنادق، ويسلم البلاد لابنه، فإذا فُدتّ الجيش مندفا إلى بغداد بصورة الغضب، فإنّك لو كنت مختفيا في السماء، أو في الأرض، فسوف أنزلك من الفلك الدوّار، وسأنزلك من عليائك إلى أسفل، ولن أدع حيا في مملكتك، وسأجعل مدينتك، وإقليمك، وأراضيك طعمة للنار.

رفض الخليفة الإذعان إلى تهديد هولاكو، وأرسل سفارة تحمل رفض الخليفة للتهديد، وتشير إلى عزّة المسلم، وقوّته، وعدم خشيته من أحد؛ لأنّه يثق بنصر الله"ليعلم الملك أنّه من الشرق إلى الغرب، ومن الملوك إلى الشّحاذين، ومن الشيوخ إلى الشباب؛ ممّن يؤمنون بالله، ويعملون بالدين كلّهم عبيد هذا البلاط، وجنود لي، وأنّي قادر على جمع شتات الجند من سائر ديار الإسلام، وإذا كنت مثلي تزرع بذور المحبّة، فما شأنك بخنادق رعيتي، وحصونهم، فأسلك طريق الودّ وعد إلى خراسان".

غضب هولاكو من هذه الرّسالة، وأرسل تهديدا آخر إلى الخليفة "إنّ الله الأزلي رفع جنكيزخان، ومنحنا وجه الأرض كلّها من الشرق إلى الغرب، فكّل من سار معنا، وأطاعنا، واستقام قلبه، ولسانه نُبقي له أمواله، ونساءه، وأبناءه، ومن فكر في الخلاف، والشقاق لا يتمتّع بذلك" وخاطب الخليفة "لقد فتنك حبّ المال، والجاه، والعجب، والغرور بالدولة الفانية، وعليك أن تكون مستعدا للحرب، والقتال، فإنّي متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل، والجراد، وتلك هي مشيئة الله العظيم"، ولم يأبه الخليفة، ورجاله بتهديد هولاكو وأعدوا العدة لمقاومة جيشه، غير أنّ الخيانة كان لها دورا في بلاط الخليفة، ذلك أنّ الوزير مؤيد الدين بن العلقمي كان يرسل هولاكو، ويعده بتسليم بغداد دون قتال.

بدأ هولاكو حملته على بغداد بإرسال فريق من جنده بقصد الاستيلاء على القلاع المحيطة ببغداد، والتي يمكن أن يتّخذ الخليفة منها قواعد للمقاومة، وسيطر جند المغول على القلاع، ومهدوا لجيش المغول الرّحف إلى إداد دون عقبات، واستشار هولاكو قبل دخول بغداد مستشاره نصير الدين الطوسي، فطمأنه إلى صحّة مشروعه، وفي أوائل محرّم 655هـ/1257م استدعى هولاكو جنده المعسكرين في أطراف دولته، وسار بجيشه إلى بغداد، ولما اقترب منها، أرسل رسالة إلى الخليفة، ولكنّ الخليفة رفض تهديده، وعزم المقاومة، وقال هولاكو: "إنّ اعتمادنا على الله، فإذا كان الله الأزلي مساعدا لي، فماذا أخشاه من الخليفة، وجيشه؟" يتساوى في نظري النملة، والبعوضة، والفيل كما يتساوى الينبوع، والنهر، والبحر، والنيل، ولو كان أمر الله على خلاف ذلك، فمن يدري سواه؟ كيف يكون ذلك الكلام؟"

عسكر المغول أمام أسوار بغداد، ودارت حرب لسنة أيام، وأرسل هولوكو أوراكا إلى أهل بغداد، تفيد بأن القضاة، والشيوخ، والفقهاء وكل من لا يحاربنا لهم منّا الأمان، وهدم المغول أسوار المدينة، وعجز جند الخليفة عن المقاومة؛ لذلك قال الخليفة: "سأستسلم، وأطيع"، وأرسل رسولا بهدايا نفيسة لهولوكو، وتحف، فلم يقبلها، وساد الدعر في بغداد، حتى لاذ بالفرار من استطاع ذلك، واختبأ بعضهم في القبور، والأنفاق، ومواقد الحمامات، واقتحم المغول بغداد، وقتلوا الألوف من أهلها، وقتل أفراد حاشية الخليفة الذي اجتمع بالوزير، وشاوره(8).

وخرج الخليفة مع الأئمة، والقضاة، والأعيان للقاء هولوكو بعد أن يبس من المقاومة، وأيقن بهلاكه، وبلده، وأهله، فأعدّ هولوكو مخيما؛ لإقامتهم، وأكرمهم، وطلب من الخليفة أن يرسل نداءً إلى جند، وأهل بغداد بالكف عن المقاومة، وإلقاء أسلحتهم، ودخل المغول على الفور لبغداد، وأحدثوا فيها مذبحه، وقتلوا كل من فيها، ثم دخل هولوكو بغداد، ودخل قصر الخليفة، وأمره بمنحه كل ما يملك، فكان ذلك، فمنحه ما في خزائن قصره، من تحف، وأموال، وأرشدته إلى حوض مملوء بالذهب الأحمر، وسبائك الذهب التي تزن الواحدة مائة مثقال، وأمر هولوكو بإحصاء حريم الخليفة، فكانوا سبعمائة زوجة، وسريّة، وألف خادمة، فأخذ هولوكو من نسائه ما شاء، واستولى على أموال الخليفة التي تركوها لخمسة قرون، ووضع المغول الأموال بعضها فوق بعض، فكانت كالجبال، واحترق جامع الخليفة، وبعض المشاهد، وقبور الخلفاء، وبعد أن اطمأن هولوكو إلى امتلاكه بغداد، أرسل الأمان إلى أهلها، وأمر جنده بالكف عن القتال، ورحل هولوكو، وأمر بقتل الخليفة، وأفراد حاشيته، وأبنائه، وخدمه، وأرسل فريقا من جنده للمحافظة على الأمن، والنظام في بغداد، وعهد إلى الوزير بحكم بغداد، وعين قاضيا للقضاة، وعهد إلى رجال من المواليين له بشغل الوظائف الإدارية.

واكتفى ابن كثير بذكر "في سنة 617/1221م عمّ البلاد، وعظم العزاء بجنكيزخان المسمّى بتموجين، وبمن معهم من التتر، واستقل أمرهم، وامتدّ إفسادهم من أقصى بلاد الصين إلى أن وصلوا بلاد العراق، وما حولها حتى انتهوا إلى إربل، وأعمالها، فملكوا في سنة واحدة سائر الممالك، إلا العراق، والجزيرة، وألان، والخزر، وغيرهم، وقتلوا في هذه السنة من المسلمين، وغيرهم في بلدان متعدّدة كبار، وصغار ما لا يحده ولا يوصف"(9).

- (1) ابن كثير: البدايات النهائية، ج 7، ص 66.
- (2) ابن كثير: نفس المصدر، ص 78.
- (3) ابن كثير: نفس المصدر، ص 101.
- (4) ابن كثير: نفس المصدر، ص 103، 104.
- (5) ابن كثير: نفس المصدر، ص 104.
- (6) ابن كثير: نفس المصدر، ص 120-122.
- (7) ابن كثير: نفس المصدر، ص 129-155.
- (8) ابن الأثير: الكامل، ج 10، 11، بعد سنة 622هـ.
- (9) ابن كثير: البداية والنهاية، ج 7، ص 139.

7. الدولة الفاطمية

النسب والأصل: ينتسب الفاطميون إلى فاطمة -الزّهراء رضي الله عنها-، إلا أنّ هناك من يشكك في هذا النسب، فمثلا يذكر السيوطي "ولم أورد أحدا من الخلفاء العبيديين؛ لأنّ إمامتهم غير صحيحة؛ لأمر منها: أنّهم غير قرشيين، وإنّما سمّتهم بالفاطميين جهلة العوام، وإلا فجدّهم مجوسي، وقال القاضي أبوبكر الباقلائي: القّداح جدّ عبيد الله الذي سمّي بالمهدي كان مجوسياً، ودخل عبيد الله المغرب، وادّعى أنّه علوي، ولم يعرفه أحد من علماء النسب، وسمّاهم جهلة النّاس الفاطميين⁽¹⁾، وقال الباقلائي أيضا: كان المهدي عبيد الله باطنيا خبيثا حريصا على إزالة ملّة الإسلام أعدم العلماء، والفقهاء؛ ليتمكّن من إغواء الخلق، وجاء أولاده على أسلوبه أباحوا الخمر، والفروج، وأشاعوا الرّفص، وقال الذهبي: كان القائم بن المهدي شرّاً من أبيه زنديقا ملعونا أظهر سبّ الأنبياء، وقال: وكان العبيديون على ملّة الإسلام شرّاً من التتر⁽²⁾، وقال ابن خلكان: وقد كانوا يدعون علم المغيبات، وأخبارهم في ذلك مشهورة⁽³⁾، ومنها، أنّ مبايعتهم صدرت، والإمام العباسي قائم موجود سابق البيعة، فلا تصحّ؛ إذ لا تصحّ البيعة لإمامين في وقت واحد، والصّحيح المنقذ⁽⁴⁾.

سمّي حكامها بالخلفاء⁽⁵⁾، وهناك من علّق على سلوكاتهم⁽⁶⁾، وقامت الدولة الفاطمية على أساس الخلافة الإسلامية في مقابل الخلافة القائمة، وانطلقت دعوتها من حقّ مؤسسيها، وتولّى زمام الأمور في الدولة

الإسلامية، أما المشروعية الدينية، فكان هدف الفاطميين إقامة خلافة يدخل في ظلها الشعوب الإسلامية منذ عهد أول خليفة لهم في المغرب، ويبدو ذلك واضحا في كتاب أرسله الخليفة المهدي 297/910م إلى القرامطة جاء فيه "أنا أحلف أيها المؤمنون بكل ما يحلف به أن فيما تلقيته مما أطلعنا الله عليه من غيبه الذي استأثر به، وآثر بعلمه أوليائه، لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون أنه لا بد، وأن تحلّ ولأنتا بني أمية في الشام، ودور بني العباس في العراق، ويكون لنا من الخلفاء مثل، ما كان لبني أمية (7) .

تاريخ الدعوة الفاطمية قبل ظهورها في مصر:

يذكر المقرئ بن نفل عن ابن النديم "هؤلاء قوم من ولد ديصان الثنوي الذي يُنسب إليه الثنوية وهو مذهب يعتقدون فيه خالقيين أحدهما يخلق النور والآخر يخلق الظلمة، فولد ديصان هذا إبنًا يقال له: ميمون القداح (8)، وإليه تنسب الميمونية، وكان له مذهب في الغلو، فولد لميمون هذا ابن يُقال له: عبد الله، كان أخت من أبيه، وأعلم بالحيل، فعمل أبوابًا عظيمة من المكر، والخديعة على بطلان الإسلام، وكان عارفا عالما بجميع الشرائع، والسنن، وجميع علوم المذاهب كلها، فرتب ما جعله من المكر في سبع دعوات يندرج الإنسان من واحدة إلى أخرى حتى ينتهي إلى الأخيرة، فيبقى مُعرضا عن جميع الأديان، لا يعتقد غير التعتيل، والإباحة، ولا يرجو ثوابا، ولا يخشى ثوابا، ولا يخشى عقابا، ويقول: إنه على هدى هو وأهل مذهبه، وغيرهم ضال مغفل (9)، وكان عبد الله بن ميمون هذا أراد أن يتنبا، فلم يتم له وأصله من موضع بالأهواز يُعرف ب"قورج العباس"، ثم نزل عسكر مُكرّم، وسكن "ساباط أبي"، له دعاة، فظهر ما هو عليه من التعتيل، والإباحة، والمكر، والخديعة، ومعه رجل من أصحابه يُعرف بالحسين الأهوازي، فادعى أنه ابن جعفر الصادق، ثم اشتهر خبره فطلبه العسكريون، فهرب هو، والحسين الأهوازي إلى سلمية؛ ليخفي أمره بها، فولد له بها ابن يُقال له: "أحمد، ومات عبد الله بن ميمون، فقام من بعده ابنه العراف، فلقب حمدا بن الأشعث قرمط بسواد الكوفة، وولد لأحمد بن عبد الله لخداح ولدان هما: الحسين ومحمد المعروف بأبي الشلعل، ثم هلك أحمد، فخلفه ابنه الحسين في الدعوة، فلما هلك الحسين بن أحمد خلفه أخوه محمد بن أحمد المعروف بأبي الشلعل، وكان للحسين ابن اسمه "سعيد"، فبقيت الدعوة له حتى كبر، وكان قد بعث محمد هذا داعيين إلى المغرب وهما: أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد، وأخوه أبو العباس، محمد بن أحمد بن محمد، فنزلا في قبيلتين من البربر، وأخذا على أهلها (10) .

وكان قد اشتهر أمرهم بسلمية، وأيسروا، وصار لهم أملاك كثيرة، فبلغ خبرهم السلطان، فبعث في طلبهم، ففر سعيد من سلمية يريد المغرب، وكان على مصر عيسى النوشري، فدخل سعيد على النوشري، ونادمه، فبلغ السلطان خبره، وكان ينقص عنه، فبعث إلى النوشري بالقبض عليه، فقرأ الكتاب، وفي المجلس ابن المدبر، وكان مؤاخيا لسعيد، فبعث إليه يحذره، فهرب سعيد، وكبس النوشري داره، وسار إلى الإسكندرية، فبعث النوشري إلى والي الإسكندرية بالقبض على سعيد، وكان رجلا ديلميا، يقال له: علي، وكان سعيد خداعا، فلما قبض عليه ابن وهسودان قال: إني رجل من آل رسول الله، فرق له، وأخذ بعض ما كان معه، وخلاه، فسار حتى نزل سجلماسة، وهو في زي التجار (11) .

فقترب إلى واليها، وخدمه، وأقام عنده مدة، فبلغ المعتضد خبره، فبعث في طلبه، فلم يقبض عليه والي سجلماسة، فورد عليه كتاب آخر، فقبض عليه، وحبسه، وكان خبره قد اتصل بأبي عبد الله الداعي الذي تقدم ذكر خروجه هو وابنه إلى البربر، فسار حينئذ بالبربر إلى سجلماسة، وقتل واليها، وأخذ سعيدا، وصار صاحب الأمر، وتسمى بعبيد الله، وتكنى بأبي محمد، وتلقب بالمهدي، وصار إماما علويا من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، ولم يلبث إلا يسيرا حتى قتل أبا عبد الله الداعي، وتملك البربر، وقلع بني الأغلب ولأه المغرب قال: فعبيد الله الملقب بالمهدي هو سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون بن القداح بن ديصان الثنوي الأهوازي، وأصلهم من المجوس، قال: أما سعيد هذا الذي استولى على المغرب، وتسمى بعبيد الله المهدي، فإنه كان بعد أبيه يتيما (12) حجر عمه الملقب بأبي الشلعل، وكان على ترتيب الدعوة بعد أخيه، فرتب أمرها لسعيد، فلما هلك، وكبر سعيد، وصار على الدعوة، وترتيب الدعوة، والرئاسة ظهر أمره، وطلبه المعتضد، فهرب إلى المغرب من سلمية (13) .

أول من ولي منهم، أبو محمد، عبيد الله، فقيل: هو محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ومن ينسب هذا النسب يجعله عبيد الله بن ميمون القداح الذي ينسب إليه القداحية (14)، وكان أول من فعل ذلك (التشكيك في الدين) أبو الخطاب، محمد بن أبي

زينب مولى بني أسيد، وأبوشاكر، ميمون بن ديسان، وغيرهما فألقوا إلى كل من وثقوا به أن لكل شيء من العبادات باطنا، وأن الله لم يوجب على أوليائه، ومن عُرف من الأئمة، والأبواب صلاة، ولا زكاة، ولا غير ذلك، ولا حرّم عليهم شيئا، وأباحوا لهم نكاح الأمهات، والأخوات، وقالوا: هذه قيود للعامّة وهي ساقطة عند الخاصّة، وكانوا يظهرن التشيع لآل النبي؛ ليستروا أمرهم، ويستميلوا العامّة (15).

وتفرّق أصحابه في البلاد، وأظهروا الزّهد، والعبادة يغرّون الناس بذلك وهم على خلافه، فقتل أبو الخطاب، وجماعة من أصحابه بالكوفة، وكان أصحابه يقولون له "إنّا نخاف الجند، فقال لهم: "إنّ أسسحتهم لا تعمل فيكم"، فلما ابتدأوا في ضرب أعناقهم، قال له أصحابه: "ألم تَقُلْ إنّ سيوفهم لا تعمل فينا؟" فقل: "إذا كان قد بدا لله، فما حيلتي؟"، وتفرّقت هذه الطائفة في البلاد، وتعلّموا الشّعبة، والنّارنجيات، والنّجوم، والكيمياء، فهم يحتالون على كلّ قوم بما يتفق عليهم، وعلى العامّة بإظهار الزّهد، ونشأ لابن ديسان ابن يقال له: أبو عبد الله القّداح "علّمه الحيل، وأطلعه على أسرار هذه النّحلة، فحذق، وتقدّم (16)، وكانت بداية أمر المهدي، عبيد الله، فإنّه ابتدأ من المغرب، وانتهى أمره على يدّ بنيه إلى المشرق، فإنّه هر بسجلماسة في ذي الحجة 290هـ/903م، وهي أقصى مسكون المغرب، ودُعِيَ للمستنصر ببغداد في سنة 451هـ/1060م (17).

أهمية مصر للفاطميين: تم اختيار مصر للفاطميين للأسباب التالية:

الموقع الفريد بين ثلاث قارات، ارتباطها الوثيق ببلاد الشام؛ إذ يبدأ الدّفاع عن مصر من بلاد الشام، إضافة إلى قربها من بغداد مركز الخلافة العباسية؛ لذلك تضاعفت مكانتها بمجيء الفاطميين إلى الحكم 358هـ/969م، وتضاعفت أهمية الدور الذي تؤديه مصر في نطاق العالم الإسلامي؛ بل وتغيّر كلّه، فلم يكن تحرك حكام مصر الجدد مجرد طموح شخصي، أو أسري، فقد كانوا يراسون حركة دينية لم تكن لترتضي أقل من إحداث تحولات أساسية في بعض فروع الإسلام، فرفضوا بصفتهن إسماعيليين أن يعبروا حتّى عند ولأنهم (18) الشكلي للخلفاء العباسيين، ومن ثمّ كانت الخلافة حقًا لهم، كما انتزعها أولاء من الأمويين، وارتقت مصر إلى مركز خلافة جديدة هي الخلافة الفاطمية، من مجرد أهميتها ولاية تابعة للخلافة الأموية، أو العباسية إلى خلافة بسطت سلطانها السياسي في بعض عصورها على شمال إفريقيا، وبلاد الشام، واليمن، وبعض جزر البحر المتوسط، ومناطق واسعة أخرى من العالم الإسلامي (19).

أهمية مصر تكمن في أنّ امتلاكها يعني السيطرة على القطرين التابعين لها، الشام، والحجاز، وبحكم الحجاز يكتسب الفاطميون مركزا دينيا ممتازا؛ لأنّ هذه البلاد موطن المقدسات الدينية، وحاكمها يعتبر الحاكم الفعلي للدولة الإسلامية؛ لما لهذه من صبغة تضي على القائمين عليها صفة الشرعية، والوقار، وهذا ما كان يسعى إليه الفاطميون دوما؛ إذ كانوا يسعون إلى كسب ودّ حكام الحرّمين المقدّسين، ويبدلون لهم الأموال، والهدايا دون أن يسقطوا أحيانا التهديد باستعمال القوة مع هلاء الحكام، فاستيلاء الفاطميين على مصر يعني استيلاءهم على هذين البلدين الهامّين، وتأسيس نفوذ الفاطميين السياسي، والديني في ثلاثة مراكز إسلامية كبرى: الفسطاط، المدينة، دمشق، ويضاف إلى هذا أنّ إخضاع الفاطميين لمصر، وبلاد الشام سيسهل أمامهم السبيل للزّحف نحو بغداد مركز الخلافة العباسية، وفوق ذلك، فإنّ موقع مصر يجعل منها حاضرة يسهل معها الاتّصال بالبلدان التابعة للفاطميين، فمنها يمكن ربط ولايات دولتهم، ومهمّة الالتقاء بها، والاتّصال معها بصورة لا يوفرها الحكم من المهديّة، أو القيروان؛ ولذلك قام الفاطميون بعدة حملات على مصر؛ بغية إخضاعها لنفوذهم (20).

الفاطميون بالمشرق الإسلامي: في سنة 355هـ/966م أمر المعزّ بحفر الآبار في طريق مصر، وأن يُبنى له في كلّ منزلة قصر، ففعل ذلك، وفي يوم الجمعة لثلاث بقين من جمادى الآخرة 355هـ/966م وردت النّجن من مصر بموت كافور الأخشيدي يوم الأربعاء عشر بقين من جمادى الأولى، واستدعى المعزّ يوما أبا جعفر بن حسين بن مهلب صاحب بيت المال وهو بالمغرب، فوجده في وسط القصر جالسا على صندوق، وبين يديه ألوف صناديق مبدّدة في صحن القصر، فقال له: "هذه صناديق مال، وقد شدّ عني ترتيبيها، فانظرها، ورتبها" قال: فأخذت أجمعها إلى أن صارت مرتبة، وبين يدي جماعة من خدام بيت المال... وأنفذت إليه أعلمه، فأمر برفعها في الخزائن على ترتيبيها، وأن يُغلق عليها، وأن تُختم بخاتمها، وقال: "قد خرجت عن خاتمنا، وصارت إليك، ففعل (21)، وكانت جملتها أربعة وعشرين ألف ألف دينار، وذلك في سنة 357هـ/968م، فأنفقها أجمع على العساكر التي سيرها إلى مصر في سنتي ثمان وتسع وخميسن 359هـ/970م مع القائد جوهر، وكان رحيله في

رابع عشر ربيع الأول منها، ومعه ألف حمل مال، ومن السلاح، والخيل، والعدد ما لا يوصف، فقدم جوهر إلى مصر، ووصلت البشارة بفتحها في نصف رمضان 9358/هـ 969م، فسُرَّ المعزُّ سرورا كثيرا⁽²²⁾.

ولما عزم المعزُّ على السير إلى مصر أجال فكره فيمن يخلفه بالمغرب، فوقع إختياره على أبي أحمد، جعفر بن علي الأمير، فاستدعاه، وأسّر إليه أنه يريد استخلافه بالمغرب، فقال: "تتركُ معي أحد أولادك، أو أخوتك جالسا في القصر، وأنا أدبرُ، ولا تسألني عن شيء من الأموال إن كان ما أجيبه بإزاء ما أنفقته، وإذا أردتُ أمرا فعلته، ولم أنتظر ورود الأمر فيه؛ لبعُد ما بين مصر والمغرب، ويكون تقليد القضاة، والخراج، وغيره من قبيل نفسي" فغضب المعزُّ، وقال: "يا جعفر، عزلتني عن مُلكي، وأردت أن تجعل لي شريكا في أمري، واستبددت بالأموال، والأعمال دوني، فمُ فقد أطأت حظك، وما أصبت رشدا، فخرج،...."⁽²³⁾.

واستدعى المعزُّ يوسف بن زيري الصنهاجي، وقال له: "تأهب لخلافة المغرب، فأكبر ذلك، وقال: "يا مولانا أنت، وأباؤك الأئمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما صفا لكم المغرب، فكيف يصفو لي؟، وأنا صنهاجي بربري؟، قتلنتي يا مولاي بلا سيف، ولا رمح"، ولم يزل به حتى أجابه، وقال: "يا مولانا بشريطة أن تُولي القضاء، والخراج لمن تراه، وتختاره، والخبر لمن تثق به، وتجعلني أنا قائما بين أيديهم، فمن استعصى عليهم أمروني به، حتى أعمل فيه ما يجب، ويكون الأمر لهم، وأنا خادم بين ذلك" فحسُن هذا من المعزُّ، وشكره، فلما انصرف، قال له عمُّ أبيه أبو طالب، أحمد بن المهدي، عبيد الله: يا مولانا، وتثق بهذا إلا لقول من يوسف أنه يفي بما ذكره؟، فقال المعزُّ: يا عمنا، كم بين قول يوسف، وقول جعفر؟، واعلم يا عم أن الأمر الذي طلبه جعفر ابتداء هو آخر ما يصير إليه أمر يوسف، فإذا تطاولت المدّة سينفرد بالأمر، ولكن هذا أولى، وأحسن، وأجود عند ذوي العقل، وهو نهاية ما يفعله من يترك دياره⁽²⁴⁾.

وخرج المعزُّ من المغرب يوم الإثنين لثمان بقين من شوال 9361/هـ 972م، وخرج من المنصورية، ومعه بلكين، واسمه "يوسف" إلى سردانية من بلاد أفريقية، فسلم إليهم أفريقية، والمغرب يوم الأربعاء تسع بقين من ذي الحجة، وأمر سائر الناس له بالسمع، والطاعة، وفوض إليه 100 أمور البلاد ما خلا جزيرة صقلية، فأبى ترك أمرها لحسن بن علي بن أبي الحسن، وطرابلس أعمالها، وقال له: "إن نسييت ما وصيناك به، فلا تنس ثلاثة أشياء: إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية، ولا ترفع السيف عن البربر، ولا تُولي أحدا من أخوتك، وبنّي عمك، فأبىهم يروُن أنهم أحقّ بهذا الأمر منك، وافعل مع أهل الحاضرة خيرا"، وفارقه⁽²⁵⁾، ويقال: لَمَّا أناخ جوهر في موضع القاهرة الآن اختطَّ القصر، فأصبح المصريون يهنؤوه، فوجوده قد حفر أساس القصر في الليل، ويقال: إن جوهر لَمَّا بنى القصور، وأدار عليها السور أسماها "المنصورية، فلَمَّا قدم المعزُّ لدين الله إلى الديار المصرية سماها "القاهرة"⁽²⁶⁾.

سبب تسمية "القاهرة": يقال: أن القائد جوهر لَمَّا أراد بناء القاهرة أحضر المنجمين، وعرفهم أنه يريد عمارة بلد ظاهر مصر؛ ليقم بها الجند، وأمرهم باختيار طالع؛ لوضع الأساس بحيث لا يخرج البلد عن نسلهم، فاختاروا طالعا لحفر الصور، وطالعا لابتداء وضع الحجارة في الأساس، وجعلوا بدائر الصور قوائم من خشب بين كل قائمتين حبل فيه أجراس، وقالوا للعمال: إذا تحركت الأجراس إرموا ما بأيديكم من الطين، والحجارة " فوققوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك، فاتفق أن غرابا وقع على حبل من تلك الحبال المعلق فيها الأجراس فتحرّكت الأجراس كلّها، وظنّ العمال أن المنجمين حركوها، فألقوا ما بأيديهم من الطين، والحجارة، وبنوا، فصاح المنجمون "القاهر في الطالع"، فمضى ذلك، وفاتهم ما قصدوه، ويقال: إن المريخ كان في الطالع عند ابتداء وضع الأساس "القاهرة"، وهو "قاهر الفلك"، فسمّوها القاهرة... وأدار الصور اللّبن حول بئر العام، وجعلها في القصر، وجعل القاهرة حارات للواصلين صحبته، وصحبة مولاه المعزُّ، وعمل القصر بترتيب ألقاه إليه المعزُّ، ويقال: إن المعزُّ لَمَّا رأى القاهرة لم يعجبه مكانها في البرية بغير ساحل، وقال لجوهر: "يا جوهر، فانتك عمارتها، هاهنا، يعني المقس بشاطئ النيل، قال يا جوهر "لما فاتك الساحل كان ينبغي عمارة القاهرة بهذا الجبل على هذا السطح، وتكون قلعة لمصر"⁽²⁷⁾.

وكان المعزُّ يخرج إلى جوهر في كلّ يوم، ويخلو به، وأمره أن يأخذ من بيوت الأموال ما يريد زيادة على ما أعطاه، وركب إليه المعزُّ يوما، فجلس، وقام جوهر بين يديه، فالتفت المعزُّ إلى المشائخ الذين وجّههم معه، وقال "والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر، وليدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب، ولينزلن في خرابات ابن طولون، وتبني مدينة تسمى "القاهرة" تقهر الدنيا"، قال "ونزل جوهر مناخه موضع القاهرة الآن في يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان سنة 9358/هـ 969م، واختطَّ القصر، وبات الناس، فلَمَّا

أصبحوا حضروا الهناء، فوجده قد حفر أساس القصر باللّيل " ولما كان يوم الجمعة لعشر بقين من شعبان نزل جوهر في عسكر إلى الجامع العتيق لصلاة الجمعة... وقرأ الخطيب: "اللهم صلّ على عبدك، ووليك ثمرّة النبوة، وسليل العترة الهاديّة المهدية، عبد الله الإمام معدّ، أبي تميم، المعزّ لدين الله أمير المؤمنين، كما صلّيت على آبائه الطّاهرين، وأسلافه الأئمّة الرّاشدين(28) .

وأمر جوهر بفتح دار الضرب، وضرب السكّة الحمراء(29)، وعليها "دعا الإمام معه التّوحيد إلّا له الصمد" في سطر، وفي السّطر الآخر "المعزّ لدين الله أمير الممنين"، وفي سطر آخر "بسم الله، ضُرب هذا الدّينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة"، وفي الوجه الآخر "لا إله إلّا الله محمّد رسول الله أرسله بالهدى، ودين الحقّ؛ ليظهره على الدّين كلّه، ولو كره المشركون، علي أفضل الوصيّين، وزير خير المرسلين" وأفطر جوهر يوم الفطر على عدد... وصلّى صلاة العيد بالقاهرة صلّى به علي وليد الإشبيلي، وخطب، ولم يُصلّ أهل مصر، وصلّوا من الغد في الجامع العتيق، وخطب لهم رجل هاشمي، وكان أبو طاهر القاضي قد التمس الهلال على رسمه في سطح الجامع، فلم يره، وبلغ ذلك جوهر، فأنكره، وتهدّد عليه(30) .

وجلس جوهر للمظالم في كلّ يوم سبت، ثمّ ردّ المظالم إلى أبي عيسى مرشد...، وفي ذي الحجة قديم سنّة لآلاف من الإخشيديّة، والكافوريّة، فأنزلوا خارج القاهرة، وزيد في الخطبة "اللهم صلّ على محمّد النبي المصطفى، وعلى علي المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن، والحسين سبطي الرّسول الذين أذهب عنهم الرّجس، وطهرهم تطهيرا، اللهم صلّ على الأئمّة الرّاشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين" (31) .

ولاية العهد، والخلافة عند الفاطميين:

اشتدّت علّة المعزّ لأربع بقيت من ربيع الآخر، وعُرف باجتماع النّاس، وكثرة الرّقاع في الظلمات، والحوائج، وسئل فيمن ينظر في ذلك، فأمر أن ينظر فيه ولي عهده "نزار، فاستخلفه، وخرج السّلام إلى النّاس، فانصرفوا، وخرج القائد جوهر، وموسى بن العازار الطيب بالعزيز، فأجلسوه، وخرج إليه إخوته، وعمّومته، وسائر أهله، فبايعوه ثمّ أدلّ إليه أكثر الأولياء، وسلّموا عليه بالإمرة، وولاية العهد، فابتهج النّاس بذلك(32)، وتوفّي المعزّ لدين الله عشية السّبت السّادس عشر من ربيع الآخر، وقيل: الجمعة حادي عشر، وقيل: ثالث عشر، ولم يظهر ذلك، ولا نطق به أحد مدّة ثمانية أشهر، وكان مولده سنة 319هـ/931م أدرك من أيام المهدي جدّ أبيه أربع سنين، وتوفّي القائم، وكان للمعزّ ست عشرة سنة، واجتمع للمعزّ بمصر ما لا يجتمع لأبائه، وذلك أنّه حصل له بالمغرب 24 بيتا من المال، منها 14 خلفها المهدي، ولم يخلف القائم عليها شيئا، وخلف المنصور بيتا واحدا، وكسوة، وأضاف إليها المعزّ تسعة، فصارت أربعة وعشرين بيتا، أنفق أثرها على مصر إلى أن فتحت، ودخلها، وحصل له من مال مصر أربعة بيوت، سوى ما أنفقه، وسوى ما قدم به معه(33) .

واجتمع له أنّ خلفاءه بمصر استخرجوا مالم يُستخرج لأحد بمصر، فاستخرج له في يوم واحد مائة ألف دينار، وعشرون ألف دينار، وهزّت القرامطة في أيّامه أربع مرّات، مرتين في البرّ، على باب مصر، ومرتين في البحر، وأقيمت له الدّعوة يوم عرفة في مسجد إبراهيم عليه السّلام، وبمكة، والمدينة، وسائر أعمال الحرمين، ولم تُرد له راية، وكُتب اسمه على الطّرز ب"التّيس، و"دمياط"، و"القيس"، و"البهنسي" قبل أن يملك مصر، وتتابع له الفتوح... ودُعِيَ لفاطمة، وعلي عليها السّلام في أيّامه على المنابر في سائر أعماله، وفي كثير من أعمال العراق، ونُصبت السّتائر على الكعبة، وعليها اسمه، ونُصبت له المحاريب الذهب، والفضة داخل الكعبة، وعليها اسمه، وكتبه أهل العراق، وأهل اليمن، وأهل خراسان، وأهل الحرمين، والتّرك بالخلافة(34) .

وكان مقامه بمصر سنتين، وسبعة أشهر، وعشرة أيّام، وأمّه أمّ ولد، وولد بالمهدية من إفريقيّة حادي عشر من شهر رمضان سنة 319هـ/931م، ومات عمره 45 سنة، وسنّة أشهر، وكانت ولايته الأمر 23 سنة، و10 أيّام، وكان مُعزّي بالنّجوم، ويعمل بأقوال المنجمين، قال له منجم: إنّ عليه قُطعا في وقت كذا، وأشار عليه بعمل سرادب يختفي فيه إلى أن يجوز ذلك الوقت، ففعل ما أمره، وأحضر قواده، وقال لهم: "إنّ بيني، وبين الله عهدا أنا ماض إليه، وقد استخلفتُ عليكم إبنني نزار، فاسمعوا له، وأطيعوا"، ونزل السّرادب، فكان أحد المغاربة إذا رأى سحابا نزل، وأومي إليه بالسّلام ظنّا منه أنّ المعزّ فيه، فغاب سنة، ثمّ ظهر، وبقي مدّة، ومرض، وتوفّي، فستر ابنه نزار العزيز موته إلى عيد النّحر من السنّة، فصلى بالنّاس، وخطبهم، ودعا لنفسه، وعزّي بأبيه(35) .

العزیز بالله، أبو منصور، ابن المعز لدين الله، أبي تميم، معد بن المنصور بنصر الله، أبي طاهر، اسماعيل بن القائم بأمر الله، أبي القاسم، محمد بن المهدي عبيد الله، أمه، أم ولد اسمها "رزان"، ولد بالمهدية الخميس 14 محرم 344هـ/956م، وولي العهد بمصر، وبوبع لسبع بقين من ربيع الآخر 365هـ/976م، ولما استقرّ العزیز في الملک أطاعه العسکر، واجتمعوا عليه، وكان هو يدبر الأمر منذ مات والده إلى أن أظهره، ثم سیر إلى المغرب دنانیر، عليها اسمه، فُرقت في الناس، وأقر "يوسف بن بُلکین" على ولاية إفريقية، وأضاف إليه ماكان أبوه استعمل عليه غير يوسف، وهي طرابلس، وغيرها، وحُطب للعزیز بمكة بعد أن أرسل إليها جيشاً، فحصرها، وضيقوا على أهلها، ومنعواهم الميرة، فغلت الأسعار بها، ولقى أهلها شدة شديدة (36).

وفي سنة 367هـ/978م منع العزیز النَّصارى من إظهار ما كانوا يفعلونه في الغطاس من الاجتماع، ونزول الماء، وإظهار الملاهي، وحذّر من ذلك، وفي سنة 369هـ/980م ولد للوزير يعقوب بن كلس ولد ذكر، فأرسل إليه العزیز مهذاً من صندل مُرَصَعاً، وثلاثمائة ثوب، وعشرة آلاف دينار عزيزية، وخمسة عشر فرساً بسروجها، ولجمها منها، اثنان ذهب، وطيب كثير، فكان مقدار ذلك مائة ألف دينار (37).
وعقد العزیز على امرأة، فأصدقها مائتي ألف دينار، وأعطى الذي كتب الكتاب ألف دينار، وخلع على القاضي، والشهود، وحملهم على البغال، فطافوا البلد بالطبول، والبوقات 252 في سنة 380هـ/991م سارت قافلة الحاج في البر بالكسوة للكعبة، والطيب، والصلوات، فجلس العزیز للنظر إليهم، وكانت قافلة عظيمة (38)، وفيها مات الوزير يعقوب بن كلس يوم 5 ذي الحجة، فكفن في خمسين ثوباً، مابين وشي، ومثقل، وشرب ديبقي مُذَهَّب، وجفن كافور، وقارورتين من مسك، وخمسين مئاً ماء ورد، وصلى عليه العزیز، فكان ما كُفِّن به، وحُفظ به عشرة آلاف دينار (39)، وحزن عليه العزیز حزناً شديداً، ولم يأكل ذلك اليوم على مائدة، ولا حضر أحد للخدمة، وأقام كذلك ثلاثاً، وأقيم العزاء على قبره مدة شهر، وأوفى العزیز عن دينه، وهو ستة عشر ألف دينار... وكان إقطاعه في كل سنة ثلاثمائة ألف دينار، سوى الرباع، واشتملت تركته على أربعة آلاف ألف دينار، سوى ما سُوي لابنته وهو مائتا ألف دينار (40).

وفي سنة 381هـ/992م أمر العزیز بإزالة المنكرات، وهدم مواضعها، فكُسر لرجل واحد خمسون ألف جرة وردت من الصعيد، وفي رجب كان عيد الصليب، فمنع العزیز من الخروج إلى بني وائل، وضبط الطرقات، والدروب، فإنه كان يظهر فيه من المنكرات، والفسوق ما يتجاوز الوصف، وفي سنة 382هـ/993م ورد سابق الحاج بتمام الحج، وإقامة الدعوة للعزیز بالموصل، واليمن، وضربت السكة باسمه في هذه البلاد، وكانت مدة العزیز في الخلافة بعد أبيه المعز 21 سنة، و5 أشهر، ونصف، ومات، وعمره 42 سنة، و8 أشهر، و14 يوماً، وكان نقش خاتمه "بنصر العزیز الجبار ينتصر الإمام نزار"، وخلف من الولد ابنه، منصور، و"سيدة الملک"، وولدت بالمغرب في ذي القعدة سنة 359هـ/970م، وتوفي العزیز 386هـ/996م (41).

الحاكم بأمر الله، أبو علي، منصور بن العزیز بالله، أبي المنصور، نزار بن المعز لدين الله، أبي تميم: ولد في القصر بالقاهرة ليلة الخميس 23 ربيع الأول 375هـ/986م/ الموافق صبيحتها الثالث عشر من شهر آب، وسلم عليه بالخلافة في الجيش بعد الظهر من يوم الثلاثاء 8 رمضان 386هـ/996م، وسار إلى قصره يوم الأربعاء بسائر أهل الدولة، والعزیز في قبة على تاقه، بين يديه، وعلى الحاكم ذراعة مُصمّنة، وعمامة، فيها الجواهر، وبيده رمح، وقد تقلد السيف، فوصل إلى القصر، ولم يفقد من الجواهر ما كان مع العساكر شيء، ودخله قبل صلاة المغرب، وأخذ في جهاز أبيه، ودفنه (42)، ثم بكر سائر أهل الدولة إلى القصر يوم الخميس، وقد نُصب للحاكم سرير من ذهب، عليه مرتبة مُذهبة في الإيوان الكبير، وخرج من قصره راكباً، وعليه مُصمّمة الجواهر، فوقف الناس بصحن الإيوان، وقبلوا الأرض، ومشوا بين يديه، حتى جلس على السرير، فوقف من مهمته الوقوف، وجلس من له عادة الجلوس، فسلم عليه الجماعة بالإمامة، واللقب الذي أختير له وهو "الحاكم بأمر الله"، وكان سنه يومئذ 11 سنة، وخمسة أشهر، وستة أيام (43).

وكانت جماعة من شيوخ كتامة تخلّفوا عن الحضور، وتجمّعوا نحو المصلّى، فخرج إليهم أبو محمد بن الحسن بن عمّار في طائفة من شيوخهم، وما زالوا بهم، حتى أحضروهم بعد امتناعهم من الحضور، وشكّوا من عيسى بن نسطوريوس، وسألوا صرفه، وأن تكون الوساطة لرجل منهم، فندب لذلك أبو محمد، الحسن بن عمّار، فقّر أحوالهم فيما يُطلق لهم من الرزق بعد خطاب طويل، على أن يطلق لهم ثمانى إطلاقاً في كل سنة، وأن يكون واحد لكل ثمانية دنانير، وأن يطلق لهم هذا الفضل في يومهم بحضرة أمير المؤمنين، فأحضر

المال، ودفع اليهم بحضرة الحاكم الفضل وهو عشرون ديناراً لكل واحد منهم، وحلفهم ابن عمّار بعد ما حلف⁽⁴⁴⁾.

وخلع على أبي الحسن يانس الخادم الصقلي، وحمل على فرسين، وقال: يتولّى القصور، وفي أوّل شوال فرس على سرير الذهب في الإيوان مرتبة فضة، وخرج الحاكم على فرس أدهم، بمعمة، وقد تقلد السيف، وفي ركابه الأيمن حُسين بن عبد الرّحمن الرّابض، وفي ركابه الأيسر بُرجوان، والنّاس قيام، فقبلوا له الأرض، ودعوا، فقال ابن عمّار للقاضي محمّد بن النّعمان مولانا يأمرك بالخروج إلى المصلّى للصلاة بالنّاس، وإقامة الدّعوة لأمير المؤمنين، فنهض قائماً، وقلده برجوان بسيف محلى بذهب من سيوف العزيز، ومضى فصلّى، وأقام الدّعوة، ثمّ قدم⁽⁴⁵⁾.

وفي ثلثه خلّع على ابن عمّار، وقُد بسيف من سيوف العزيز، وحمل على فرس بسرج ذهب، وكناه "الحاكم"، ولقبه ب"أمين الدّولة"، وقال له: "أنت أميني على دولتي، ورجالي، وقاده بين الخيل، وعمل خمسين ثوباً ملونة من البزّ الرّبيع، ومضى في موكب عظيم إلى داره، وكُتب سجل من إنشاء أبي منصور بن سُورين، وبخطه قرأه القاضي محمّد بن نعمان⁽⁴⁶⁾ بالجامع يتضمّن وراثه الحاكم المُلْك من أبيه، ويعدّ الرّعيّة فيه بحسن النّظر لهم، وأمر فيه بإسقاط مكوس كانت بالسّاحل، وفرح النّاس، وكانت عدّة ممّن قتلهم ابن نسطورس لكلّ واحد عشرة دنانير من أجل كنفه، فكثّر الدّعاء من الرّعيّة للحاكم، وأمر بقلع الألواح التي على دور الأخباز، وسلّمت لأربابها، ومستحقّها، فبلغت شيئا كثيراً⁽⁴⁷⁾.

وأقرّ عيسى بن نسطورس على ديوان الخاص، وخلع على جماعة بولايات عديدة، وقُرىء سجل قرأه القاضي بالجامع يتضمّن ولاية ابن عمّار الوسّاطة، وتلقيه بأمين الدّولة، وأمر النّاس كلّهم أن يترجّلوا لابن عمّار بأسرهم له، وفي ثاني ذي القعدة تجمّع الكُتّاميون عند المصلّى، فأنفذ إليهم، واستحضرهم، وتقرّر أمرهم التّفقّة فيهم، فأنفق عليهم، وحمل راجلهم على الخيل، وكانوا نحو الألف رجل، وأرُكبت شيوخ كتامة بأسرهم على الخيول بالمراكب الحسنة⁽⁴⁸⁾، وفي 12 هـ خلّع على أبي تميم، سلّمان بن جعفر بن فلاح، وقُد السيف، وحمل على فرس بمركب ذهب، وقيد بين يديه أفراس مُترجة مُجمّة، وحمل بين يديه ثياب كثيرة في كلّ نوع، وجرد معه عسكر؛ ليسير إلى الشّام، وسارت قافلة الحاج بكسوة الكعبة، والصلاة، والتّفقّة على الرّسم المعتاد في التّصف منه، وركب الحاكم يوم الأضحى، فصلّى بالنّاس صلاة العيد بالمصلّى، وخطب، وأصعد معه المنبر القاضي محمّد بن النّعمان، وبرجوان، وابن عمّار، وجماعة⁽⁴⁹⁾.

وفي 997/387م فيه ضربت رقبة عيسى نسطورس، وفي سنة 998/388م في 6 ربيع الأوّل منه كان نوروز الفرس، فأهدت الأتراك، وقوادهم، وجماعة الأولياء إلى الحاكم الخيل، والسّلاح الكثير، فقبل يسيراً منه، وشكر الأولياء ذلك لهم، وردّ الباقي إليهم⁽⁵⁰⁾، وفي سنة 988/388م سارت قافلة الحاج أوّل ذي القعدة بالكسوة، والصلاة على العادة، وصلى الحاكم صلاة عيد النّحر، وخطب على الرّسم، وأجرى النّاس في أضحاحهم على عواندهم، وعمل عيد الغدير على العادة، وطاف النّاس بالقصر على رسمهم، وفي سنة 1000/390م في أوّل يوم من محرّم ظهر الحاكم، ودخل النّاس، فهنوه بالعام، وفي الحادي عشر صفر وصلت قافلة الحاج من غير أن يدخلوا إلى المدينة المنورة⁽⁵¹⁾.

وفي سنة 1001/391م فيها قتل الحاكم أبا القاسم، سعيد بن سعيد الفارقي يوم السبت 8 بقين من جمادى الأولى وهو يسايره بأن أشار إلى الأتراك بعينيه بعد أن بيّت معهم قتله، فأخذته السيوف، وكان قد داخل الحاكم في أمور الدّولة، وقرأ عليه الرّقاع، واستأذنه في الأموال كهيئة الوزراء⁽⁵²⁾، وفي سنة 1001/391م في محرّم قتل الحاكم ابن أبي نجدة، وكان بقالا، فترقت أحواله حتّى وليّ الحسبة، ودخل فيما لا يليق به رأساً في معاملة النّاس، فاعتقل، ثمّ قطعت يده، ولسانه، وشهّر على جمل، وضربت عنقه، وفي شعبان سارت هدية إلى المغرب، فيها 300 فرس بجلال، وعشرة بمراكب، وخمسة، وأربعون بغلاً تحمل السّلاح، والكسوة، وعشرون بغلاً تحمل صناديق، فيها ذهب، وفضة⁽⁵³⁾.

وفي سنة 1002/392م في ربيع الأوّل قُرىء سجل برفع المنكرات، وإبطالها، وبمنع ذلك، فخيم على عدّة مواضع، فيها المسكرات؛ لثراق، وابتدئ في عمارة جامع راشدة، وكان مكانه كنيسة، فبنّى جامعاً، وأقيمت فيه الجمعة، وقُبض أموال من قبض عليه من النّصارى الكتاب⁽⁵⁴⁾، وفي سنة 1004/394م هُدمت كنيسة بجانِب جامع راشدة، وأمر بهدم جامع عمرو بن العاص بالإسكندرية⁽⁵⁵⁾، وفي سنة 1005/395م في سابع محرّم قُرىء سجل في الجوامع بأمر اليهود، والنّصارى بشدّ الرّنار، ولبس الغيار، وشعارهم بالسّواد

شعار العباسيين، وفي التاسع ربيع الآخر أمر الحاكم بمحو مكتوب على المساجد، والأبواب، وغيرها من سبت السلف، فمحي بأسره، وطاف متولي الشرطة، حتى أزال سائر ما كان منه، وفُرىء سجل بترك الخوض فيما لا يعني، واشتغال كل أحد بمعيشته عن الخوض في أعمال أمير المؤمنين، وأوامره⁽⁵⁶⁾، وفي سنة 1008/398م، فلما كان ليلة عيد الشعانين مُنع النَّصاري من تزيين كنائسهم على ماهي عاداتهم، وقبض على جماعة منهم في رجب، وأمر بإحضار ما هو معلق على الكنائس، وإثباته في دواوين على باب الجامع، ووفي الشرطة⁽⁵⁷⁾.

الظاهر لإعزاز دين الله، أبو الحسن، علي بن الحاكم بأمر الله، أبي علي منصور: أمه أم ولد تدعي رقية، ويقال: اسمها "أمنة" أخت الحاكم، كانت تعادي أمنة هذه، ولد بالقصر من القاهرة رمضان 1005/395م، وبويع بالخلافة يوم عيد الأضحى 1021/411م، وعمره 16 سنة، و3 أشهر، واتفق في هذا اليوم أن صُلّي للحاكم في خطبة العيد، ثم بويع الظاهر بعد عودة القاضي من المصلّى، فكان بين الدعاء في الخطبة للحاكم، وبين أخذ البيعة للظاهر ثلاث ساعات، ولم يتفق مثل ذلك⁽⁵⁸⁾.

المستنصر بالله، أبوتميم، معد بن الظاهر لإعزاز دين الله، أبي الحسن، علي بن الحاكم بأمر الله، أبي علي منصور: أمه أم ولد السيدة "رصد"، ولد يوم الثلاثاء 16 جمادى الأولى سنة 1030/420م بالقاهرة، والطلع عند ولادته من برج السرطان ثمان درج... وبويع بالخلافة يوم الأحد للنصف من شعبان سنة 1036/427م، وقام بأمره الوزير أبو القاسم الجرجاني، وأخذ له البيعة على الناس، وأطلق للجند أرزاقهم، وشيئا آخر سبيل الصلة، وسكنت الأمور، واستقامت الأحوال، وكتب له المستنصر سجلا بإقراره على الوزارة⁽⁵⁹⁾.

وفي سنة 1063/454م ابتدأت الفتنة التي كانت سببا لخراب الإقليم، وذلك أن المستنصر كان من عادته في كل سنة أن يركب على النُجُب، ومعه النساء، والحشم إلى جُب عميرة وهو موضع نزهة، ويُغير هيئته كأنه خارج يريد الحجّ على سبيل الهزر، والمجانة، ومعه الخمر محمولا في الزوايا عوضا عن الماء، ويدور به سقاته عليه، وعلى من معه كأنه بطريق الحجاز، أو كأنه ماء زمزم، فلما كان في جمادى الآخرة على عادته خرج، واتفق أن بعض الأتراك جرّد سيفا في سكرة منه على بعض عبيد الشراء، فاجتمع عليه عدة من العبيد، وقتلوه، فغضب لذلك جماعة الأتراك، واجتمعوا بأسرهم، ودخلوا على المستنصر، وقال: إن كان هذا الذي قُتل منا عن رضاك، فالسمع، والطاعة، وإن كان قتله عن غير رضا أمير الممنين، فلا صبر لنا على ذلك، وأنكر المستنصر أن قتله برضاه، أو أمره، فخرج الأتراك⁽⁶⁰⁾.

واشتدوا على العبيد يريدون محاربتهم، فبرزت العبيد إليهم انهزم العبيد، وقويت الأتراك هذا، والسيدة أم المستنصر تمّد العبيد بالأموال، والسلاح فاتفق في بعض الأيام الأتراك وقف على شيء منا تبعث بهام المستنصر إلى العبيد؛ لتعينهم به على محاربة الأتراك، فأنكر ذلك، وأعلم أصحابه، فاجتمعوا، وصاروا إلى المستنصر، وتجرؤوا عليه بالقول، وأغلظوا في المخاطبة، فأنكر أن يكون عنده من ذلك خبر، وصار السيف قائما، فدخل على أمه، وأنكر عليها ما تعتمده من تقوية العبيد، وإعانتهم على محاربة الأتراك، ثم انتدب أبا الفرح ابن المغربي الذي كان وزيرا، فخرج، ولم يزل يسعى بين الأتراك، والعبيد، حتى أوقع الصلح بين الفريقين... وكانت هذه أول الاختلاف بين طوائف العسكر⁽⁶¹⁾.

وكان السبب في كثرة السودان بالقصر أن أم المستنصر كانت جارية سوداء قدم بها أبو سعيد التستري، فأخذها منه الظاهر، واستولدها المستنصر، فلما أفضت الخلافة إلى ابنها المستنصر، ومات الوزير صفّي الدين الجرجاني في سنة 1045/436م استطالت أم المستنصر، وقويت شوكتها، وتحكمت في الدولة، واستوزرت مولاها أبا سعيد... فاستمال الأتراك، وزاد في واجباتهم حتى قتلوا أباسعيد، فحنقت أم المستنصر من قتله على الفلاح... وأخذت في شراء العبيد السود، وجعلتهم طائفة لها، واستكثرت منهم، وخصتهم بالنظر، وبسطت لهم في الرزق، ووسعت عليهم، حتى أمطرتهم بالنعم، وسار العبد بمصر يحكم حكم الولاة، وشرعت تغض من الأتراك، وتظهر كراهيتهم، وانتقاصهم⁽⁶²⁾.

المستعلي بالله، أحمد بن المستنصر بالله، أبي تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله، أبي الحسن، علي بن الحاكم بأمر الله، أبي منصور: ولد 8 محرم سنة 1076/468م بويع له الخميس 18 ذي الحجة سنة 1095/487م حين مات أبوه المستنصر، وذلك أن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي عندما مات المستنصر بادر إلى القصر، وأجلسه، ولقّبه بالمستعلي، وبعث، فأحضر إليه نزارا، وعبد الله، وإسماعيل أولاد المستنصر، فلما حضروا، وشاهدوا أخاهم أحمد، وكان أضغرهم قد جلس على تخت الخلافة أنفوا ذلك،

فأمرهم الأفضل بتقبيل الأرض، وقال لهم: تقدّموا، وقبّلوا الأرض لله تعالى، ولمولانا المستعلي بالله، وبابعوه، فهو الذي نصّ عليه الإمام المستنصر قبل وفاته للخلافة من بعده، فامتنعوا من ذلك، وقال كلّ منهم: إنّ والده وعده بالخلافة، وقال نزار: إنّ قُطعت ما بايعت من هو أصغر سنّاً منّي، وخطّ والدي عندي بأنّي وليّ عهده، وأنا أحضره⁽⁶³⁾.

وفي 12 بقيت من ذي الحجّة بادر الأفضل، فأجلس أبا القاسم (المستعلي بالله)، فأخرجه إلى الإيوان، وأجلسه على سرير الملك، وجلس هو على دكّة الوزارة، وحضر قاضي القضاة المؤيد بنصر الإمام علي بن نافع بن الكحال، والشهود، فأخذ البيعة على مقدمي الدولة، وأمرائها، ورؤسائها، وجميع الأعيان، ثمّ مضى إلى عبد الله، وإسماعيل ولدي المستنصر، وكانا في مسجد من مساجد القصر، وقد وكل بهما الأفضل جماعة يحفونهما، فقال لهما: أنّ البيعة قد تمّت لمولانا المستعلي بالله وهو يُفروكما السلام، ويقول لنا: تبايعاني، أم لا؟ فقالا: السّمع، والطاعة، إنّ الله اختاره علينا، ووفقا قائمين على أرجلها، وبابعاها، وكُتبت كتاب البيعة، وأُخرج، فقرأه الشّريف كاتب ديوان الإنشاء على عادة الأمراء، وجميع أهل الدولة⁽⁶⁴⁾.

وفي أيّام المستعلي افتردت الإسماعيلية، فصاروا فرقتين، نزارية تعتقد إمّامة نزار، وتطعن في إمّامة المستعلي، وترى أنّ ولد نزار هم الأئمّة من بعده يتوارثونها بالتّصّ، والفرقة المستعلوية، ويرون صحّة إمّامة المستعلي، ومن قام بعده من الخلفاء بمصر، وبسبب ذلك حدثت فتن، وقُتل الأفضل فيما يقال، وقُتل الأمر... ولم يكن للمستعلي سيرة تذكر، فإنّ الأفضل كان يدبر أمر الدولة تدبير سلطنة، وملك لا تدبير وزارة، وخلف المستعلي من الأولاد ثلاث: الأمير، أبو علي، المنصور، الأمير جعفر، الأمير عبد الصمد، وقيل: إنّ المستعلي مات مسموما، وقيل: قتل سرّاً⁽⁶⁵⁾.

الأمر بأحكام الله، أبو علي، المنصور بن المستعلي بالله، أبي القاسم، أحمد بن المستنصر بالله، أبي تميم مَعَدّ: ولد ضحى الثلاثاء 13 محرّم سنة 490هـ/1098م ببيع له بالخلافة يوم وفاة والده وهو طفل له خمس سنوات وشهر وإيام يوم الثلاثاء 7 صفر سنة 495هـ/1102م أحضره الأفضل وباع له ونصبه مكان أبيه، ونعته بالأمر بأحكام الله⁽⁶⁶⁾، وفي سنة 501هـ/1108م أهدت، والخليفة بمصر الأمر بأحكام الله، ومدبّر سلطنة مصر الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي، وليس للأمر معه حلّ، ولا ربط، وليس له من الأمر سوى اسم الخلافة⁽⁶⁷⁾.

وفي سنة 501هـ/1108م فيها كثر خوض النّاس في القرآن، هل هو محدث، أو قديم؟، وتفاقم الأمر، فعرف الأفضل، فأمر بإنشاء سجل بالتّحذير من الخوض في ذلك، وركب درجات منه، وقُرى بمصر، وجلس في المحراب بجوار المنبر، وصعد الخطيب أربع درجات منه، وقرأ السّجل على النّاس⁽⁶⁸⁾، وفي سنة 515هـ/1122م مات الأفضل، وعمره 57 سنة، ومدّة ولايته 28 عاما، وكانت محاسنه كثيرة وهو أوّل من أفرد مال المواريث، ومنع من أخذ شيء من التّركات على العادة القديمة، وأمر بحفظها لأربابها، فإذا حضر من يطلبها، وطالعه القاضي بثبوت استحقاقه أمره في الحال بإطلاق ما ثبت⁽⁶⁹⁾.

وفي سنة 524هـ/1131م ولد للأمر في ربيع الأوّل ولد سمّاه "أبا القاسم الطيب"، فجعل وليّ عهده، وأمر، فزُينت القاهرة، ومصر، وعمّلت الملاهي في الإيوانات، وأبواب القصور، وكسيت العساكر، وزُينت القصور، وأخرج الأمر من خزائنه، وذخائره قماشاً، ومصاعاً ما بين آلات، وأواني من ذهب، وفضة، وجوهر، فزين به⁽⁷⁰⁾، وكان كثير الفُرج محباً للهوى، كان نقش خاتمه "الإمام الأمر بأحكام الله أمير المؤمنين"⁽⁷¹⁾.

الحافظ لدين الله، أبو الميمون، عبد المجيد بن الأمير، أبي القاسم، محمّد بن المستنصر بالله، أبي تميم مَعَدّ: ولد بعسقلان محرّم سنة 467هـ/1075م، أو 468هـ/1076م⁽⁷²⁾.

الظافر بأمر الله، أبو المنصور، إسماعيل بن الحافظ لدين الله، أبي الميمون، عبد المجيد بن الأمير أبي القاسم، محمّد بن المستنصر بالله: ولد الأحد نصف ربيع الآخر سنة 527هـ/1133م ببيع في يوم وفاة والده الحافظ لدين الله، وهو الأحد الخامس جمادى الآخرة سنة 544هـ/1150م، وعمره 17 سنة، و4 أشهر، و10 أيّام بوصية من أبيه له بالخلافة، وكان أصغر أولاده⁽⁷³⁾. **الفائز بنصر الله، أبو القاسم، عيسى بن الظافر بأمر الله، أبي المنصور، إسماعيل بن الحافظ لدين الله، أبي الميمون، عبد المجيد:** والدته اسمها "ستّ الكمال"، ولد يوم الجمعة 11 محرّم سنة 549هـ/1155م، وعمره خمس سنوات، وعشرون يوماً.

العاضد لدين الله، أبو محمد، عبد الله بن الأمير يوسف ابن الحافظ لدين الله، أبي الميمون، عبد المجيد: ولد يوم الثلاثاء لأيام بقين من محرّم سنة 546هـ/1152م، وبويع عند انتقال الفائز الجمعة قبل الصلاة 13 بقيت من رجب سنة 550هـ/1156م، وعمره تسع سنوات، وستّة أشهر، وسبعة أيّام⁽⁷⁴⁾.

وفي سنة 565هـ/1170م قدم من الشّام إخوة صلاح الدّين يوسف، وعيان، وفي سنة 566هـ/1171م رفع صلاح الدّين جميع المكوس بديار مصر، وأبطلها، وفيها أمر بهدم المعونة بمصر، فهُدّمت، وعمّرها مدرسة للشّافعيّة، ولم يكن قبل ذلك بديار مصر مدرسة لأحد من الفقهاء، فإنّ الدّولة كانت إسماعيلية، وهذه المدرسة بجوار جامع عمرو بن العاص، وعُرفت أخيرا بالمدرسة الشّريفيّة، وهي أوّل مدرسة عمّرت بمصر؛ لإلقاء العلم، وأنشأ دار الغزل به مدرسة للمالكيّة بجوار الجامع أيضا، وتُعرف هذه المدرسة اليوم بالقمحيّة...وفي هذه السنّة عزل صلاح الدّين قضاء مصر من الشيعة، واستبدله بقضاة شافعيّة⁽⁷⁵⁾.

ولمّا مات العاضد استولى صلاح الدّين على جميع ما كان في القصر، ونُقل أهل العاضد، وأقاربه إلى مكان بالقصر، ووُكل بهم من يحفظهم، وأخرج سائر ما في القصر من العبيد، والإماء، فباع بعضهم، وأعتق بعضهم، ووهب منهم، وخلا القصر من ساكنه كأن لم يُعن بالأمس، وكانت مدّة الدّولة الفاطميّة بالمغرب، ومصر منذ دُعيّ للمهدي عبيد الله برقادة من القيروان إلى حين قُطعت من ديار مصر مائتي سنة، و69 سنة، وسبعة أشهر، وأياما، أوّله لإحدى عشرة بقيت من ربيع الآخر سنة 297هـ/910م، وأخراها سلخ ذي الحجة سنة 566هـ/1171م، منها بالمغرب إلى حين قدوم القائد جوهر إلى مصر 61 سنة، وشهران، وأيام، ومنها بالقاهرة، ومصر 200 سنة، وثمانين سنوات⁽⁷⁶⁾.

منصب الوزارة في العصر الفاطمي: الوزارة بمفهومها الوظيفي وسلطاتها المحدّدة أوّل ما استعملت في العصر العباسي من أجل إشراك الفرس في السّلطة؛ لتحقيق التّوازن فيما بين الطرفين، حيث كان تعيين الوزير من الفرس إلى جانب الخليفة رمز هذه المشاركة الفعلية، وهناك سبب آخر، أنّ من الخلفاء من تعتبر الوزراء مجرّد مساعدين لهم، أو أمناء على أسرارهم، بينما الوزراء يحاولون الاستئثار بجميع الصّلاحيات، والسيطرة على مختلف الأجهزة⁽⁷⁷⁾.

الوزارة في الدّولة الإسلاميّة بما فيها الدّولة الفاطميّة تنقسم إلى قسمين: وزارة تفويض، ووزارة تنفيذ، وزارة التنفيذ لا تحتاج إلى تقليد، وإنّما يُراعى فيها مجرّد الإذن، ولا يشترط لها الحرية، والعلم؛ لأنّ ليس له الانفراد بالقرار، ويقصر دوره على أمرين أحدهما: أن يؤدي للخليفة، والثّاني أن يؤدي عنه، لم يعرف الفاطميون نظام الوزارة في المرحلة الإفريقيّة، وحتّى بعد انتقالهم إلى مصر، فإنّ الخليفة المعز لم يتخذ له وزيرا، لكنّه أوجد ما يطلق عليه "الوساطة"، ومن يتولّاها يسمّى "الوسيط"، لأنّه يتوسط بين الخليفة ورعيته، والقرار الأخير يعود إلى الخليفة نفسه⁽⁷⁸⁾؛ أي بمثابة سفارة.

وحسب ابن الصيرفي وما كتبه عن الوزارة في العهد الفاطمي، وبدأ بمن اصطفاه الإمام العزيز بأمر الله أمير المؤمنين للوزارة، وأهله لشرف التدبير بنفسه، ولا يُعول فيه على غيره، والله تعالى يعين على ما يحظى، ويرشد إلى ما يوافق، ويرضي بفضله، وقوته، وحموله⁽⁷⁹⁾، وذكر في كتابه الإشارة إلى من نال الوزارة أشهر الوزراء الفاطميين وأعمالهم، بدءا من ألقابهم المعظمة:

خلافة الإمام العزيز بالله، الوزير أبو الفرج، يعقوب بن كليس: كان يهوديا كاتبًا صائنا لنفسه محافظا على دينه، جميل المعاملة مع التّجار فيما يتولّاه، واتّصل بخدمة كافور الأخشيدي، فحمد خدمته، وردّ إليه زمام ديوانه بالشّام، ومصر، فضبطه على حسب إرادته، وكان سبب حظوته عنده أنّ يهوديا قال له: "إنّ في دار ابن البلديّ عشرين ألف دينار، وقد توفي"، فكتب يعقوب إلى كافور رقعة فيها، "أنّ بالرّملة عشرين ألف دينار مدفونة في موضع أعرفه، وأنا أخرج أجلها"، فأجابته إلى ذلك، وأنفذ معه البغال لحملها، وورد الخبر بموت بكير بن هارون التّاجر، فجعل إليه النّظر في تركته، واتّفق موت يهودي بالفرما، ومعه أحمال كتاب، فأخذها، وفتحها، فوجد فيها عشرين ألف دينار، فباع الكتان، وحمل الجميع، وسار إلى الرّملة لحفر الدّار، وأخرج المال وهو عشرون ألف دينار، فازداد محلّه في قلبه، وتصوره بالثّقة، ونظر في تركة ابن هارون، واستنقى، وحمل منها مالا كثيرا، ثمّ وافى، وقد زاد عنده، فأرسل إليه صلة كبيرة، فأخذ منها ألف درهم، وردّ الباقي، وقال: "هذه كفايتي"، فزاد أمره عنده، حتّى أنّه كان يشاوره في أكثر أموره، وكلّما رُفِع إليه صاب أمر يدفعه إليه يتأمّله⁽⁸⁰⁾.

وكان ابن كليس متكلماً على مذهبه، فشرح الله صدره للإسلام، فنزل الجامع، وصلى الغداة جماعة يوم الإثنين ثمانين عشرة خلت من شعبان سنة 350/982م، وأظهر إسلامه، وبلغ خبره كافور، فسره ذلك، وعاد من الجامع إلى دار كافور، فخلع عليه غلالة، ومُبطنة، ودرّاعة، وعمامة، وزادت مرتبته عنده، وسار إلى الغرب، وخدم الإمام المعزّ لدين الله أمير المؤمنين، وخصّ بخدمته، وتولّى أمره، وفي رمضان سنة 368/979م لقبه بالوزير الأجلّ، وأمر ألاّ يخاطبه أحد، ولا يكاتبه إلاّ به، وخلع عليه، وحُمل، ورُسم له في محرّم سنة 373/984م أن يبدأ في مكاتباته السّلام بذلك، وفي هذه السنة اعتقله في القصر، وردّ الأمر إلى جبر بن القاسم، فأقام معتقلاً شهراً، ثمّ أطلقه في سنة 374/985م، وحمله على الخيل بالسّروج، واللّجم الثّقال، وقُرئ له سجل يردّه إلى ما كان له من تدبير الدّولة، ثمّ قُرئ له سجل يهبه خمس مائة من النّاشئة، وألف غلام من المغاربة، لا رجعة فيهم، ولا متنوية، ولائاً ملكناه أعناقهم، وحكّمناه فيهم⁽⁸¹⁾، وكان الوزير أبو الفرج في سنة 370/981م أحضر جماعة الفقهاء، وأهل الفتياء، وأخرج لهم كتاب فقه عمله، وقال: هذا عن مولانا الإمام العزيز بالله عن أبائه الكرام"، وقرأ عليهم رسالته، وبعض كتاب الطهارة، وهذا الكتاب يُعرف بالرسالة الوزيرية، وتوفيّ ابن كليس سنة 380/991م⁽⁸²⁾.

وفي خلافة الإمام الحاكم بأمر الله، كان يباشر الأمور بنفسه، ويتولّى النّظر، والتّدبير، وكلّ الوزراء، والسّفراء الذين اصطفاهم لم تطل أيّام نظرهم، فيظهر فيها غريب من أفعالهم، ولا نادر من آثارهم،... وبلغ هذه المنزلة... **أمين الدّولة أبو أحمد، الحسن بن عمّار بن أبي الحسين**: لما أفضت الخلافة إلى الإمام الحاكم بأمر الله في 380/991م ردّ الأمور إليه، والتّدبير، وقال له: "أنت أميني على دولتي، ولقبه، وكنّاه، وكان النّاس على اختلاف طبقاتهم يترجّلون له، واستؤذّن الإمام الحاكم بأمر الله في الجرايات التي كان العزيز بالله أمر بإقامتها في كلّ شهرين لأمين الدّولة هذا، وهي خمس مائة دينار للحم الحيوان، والتّوابل، والفاكهة مع ما كان يقام له خاصّة من الفاكهة، وهو سلّة كلّ يوم بدينار، وعشرة أرطال شمعا كلّ يوم، وحمل ثلج بين يومين، فأمر بإجراء ذلك على الرّسم، فأطلق له مدّة حياته، ولم يقطع عنه شيء منه، ولم يزل ناظراً في أمور الدّولة إلى أن جرت فتنة بين المغاربة في سنة 387/997م، فاعتزل النّظر، ولزم داره⁽⁸³⁾.

الأستاذ برجوان: نظر الأستاذ برجوان فيما كان ابن عمّار ينظر فيه من أمور المملكة في رمضان سنة 387/997م، وكان كاتبه أبو العلا، فهد بن إبراهيم النّصراني يُوقع بين يديه، وينظر في أمور النّاس، ولقب فهد هذا بالرّئيس في جمادى الأولى من سنة 382/993م، ولم يزل على ذلك إلى أن أمره في شهر ربيع الآخر من سنة 390/1000م، قُتل في القصر، ووُجد فيما خلفه ألف سراويل ديبقيّاً بألف تكّة حرير، ومن الملابس، والصياغات، والآلات، والطيب، والفُرش، والكتب ما لا يحصى كثرة، ومن العين ثلاثون ألف دينار، ومن الخيل، والبغال خمسمائة رأس⁽⁸⁴⁾.

قائد القواد، الحسين جوهر، والرّئيس أبو العلا، فهد بن إبراهيم: بعد زوال أمر برجوان ردّ الأمر إليها، وخلع عليهما، وحُمل للرّئيس هدية، وهي عشرة آلاف دينار، وسفط فيه حُلّة، لا حمل لها، ودرّج فيه جوهر، وخواتم، وطيب، وأسفاط، وخمسون رأساً من الخيل، والبغال، وكانا يديران، ويتقدّان في القصر، واستمرّا على ذلك إلى أن زال أمر الرّئيس في جمادى الآخرة سنة 393/1003م قُتل، وأحرق، وأقام قائد القواد على أمره، ثمّ خان، فهرب هو، و ابن التّعمان، وكتب لهما أمانان، فعدا، وبطل أمر قائد القواد في النّظر، وقُتل⁽⁸⁵⁾.

الشافى زرعة بن نسطورس: ردّ النّظر إليه، والسّفارة في محرّم 401/1011م، ولقب الشّافى في ربيع الآخر منها، ولم يزل على ذلك إلى أن توفيّ بمصر في صفر 403/1013م، وكانت علته سقفة ظهرت، وكان اشتغاله بتثمين المال، وتدبير الأعمال⁽⁸⁶⁾.

أمين الأماناء، أبو عبد الله، الحسين بن طاهر الوزان: خلع عليه الوساطة، والتّوقيع عن الحضرة في ربيع الأوّل سنة 403/1013م، وكان قبل ذلك يتولّى بيت المال، فاستخدم فيه أخاه "أبا الفتح، مسعود"، وكان تلقّيه في جمادى الأولى من تلك السنة، وكان قد ظهر بمال، ويكون عشرات ألف، وصياغات، وأمتعة، وطرائف، وفُرش، وغير ذلك بمصر، وجميعه ممّا خلفه قائد القواد "حسين بن جوهر"، فباع المتاع، وأضاف ثمنه إلى العين، فحصل منه مال كثير، وطالبه الإمام الحاكم بأمر الله، فأمر به أجمع لورثة قائد القواد، ولم يتعرّض لشيء منه، وكثرت صلوات الإمام الحاكم بأمر الله، وعطاه، وتوقيعاته بما يُطلق في ذلك، واتّصل به عن أمين الأماناء بعض التّوقف، فخرجت إليه رقعة بخطّه عليه السّلام في الثّامن والعشرين من رمضان

سنة 403/هـ 1013م "بسم الله الرحمن الرحيم... الحمد لله كما هو أهله، ومستحقه أصبحت لا أرجو، ولا أتقي- إلا إلهي، وله الفضل... جدّي بني، وإمامي أبي، وديني الإخلاص، والعدد... ما عندكم ينفذ، وما عند الله باق- والمال مال الله، والخلق عيال الله، ونحن أمناؤه في الأرض أطلق أرزاق الناس، ولا تفتعها، والسلام"، ولم يزل على ذلك إلى أن بطل أمره في جمادى الآخرة 405/هـ 1015م ركب مع الإمام الحاكم على عادته، فلما حصل بحارة كتامة خارج القاهرة، ضرب رقبته هناك، ودفنه مكانه، واستحضر الإمام الحاكم بأمر الله جماعة الكُتّاب الذين هم رؤساء الدولة، وسأل كلاً منهم عما يتولّاه، وأمرهم بلزوم دواوينهم، وتوفيرهم على الخدمة(87).

الحسن، وعبد الرحمن ابنا أبي السيد: خُلع عليهما، وجعلا واسطتين، وحُملا، وجلسا من يومهما، وهو 3 شعبان 405/هـ 115م، ثم أُسندعيا إلى الحضرة، وذكر عنهما أنّهما ضمنا أموال الدولة، وأجرانها على رسومها، وتوفير ثلاثمائة ألف دينار، بعد ذلك فحُمِل إلى بيت المال في كل سنة على رسومها، وتوفير ثلاثمائة ألف دينار بعد ذلك، فحُمِل إلى بيت المال في كل سنة، واستمرّا على الخدمة إلى أن بطل أمرها في 15 شوال من السنة المذكورة، فكانت مدة نظرها يوما قُتلا في التاريخ المذكور(88).

أبو العباس بن الفضل بن الوزير، أبي الفضل، جعفر بن الفضل بن الفرات: أمره الإمام الحاكم بأمر الله يوم السبت ثاني ذي القعدة سنة 405/هـ 1015م بالجلوس للوساطة من غير خُلع، ولا حملان، فجلس إلى آخر يوم الأربعاء السادس من الشهر المذكور، ثم بطل أمره، فكانت مدة جلوسه خمسة أيام قُتل في التاريخ المذكور(89).

وزير الوزراء، ذو الرياستين، الأمر، المُظفر، قطب الدولة، أبو الحسن، علي بن جعفر بن فلاح: كان من أوفى الكُتّامين(90) بيتا، وأجلهم قدرا، وكان أبوه من الأجواد، وهو أحد الجعفرين الذين أرشد ابن هاني الشاعر الأندلسي إليهما، فإنّه لما امتدح جوهر أَعْطاه مائتي درهم، فاستقلّها، وسأل عن كريم يمدحه، فقيل له: عليك بأحد الجعفرين: جعفر بن فلاح، فأعطاه مائتي دينار، ثم انتقل عنه إلى جعفر بن الأندلسيّة، وهو يومئذ والي الزّاب، ولم يزل عنده، حتّى استدعاه الإمام المعزّ لدين الله، فبعث به إليه في جملة تُحف، وطرائف، وكان أوجه الأمراء في الدولة الحاكميّة، وقاد الجيوش السائرة إلى الشام، ومرض في 406/هـ 1016م، فركب الإمام الحاكم إلى داره لعيادته، وحمل إليه مرتبة، وديباجا، وخمسة آلاف دينار، وكانت هذه عادته إذا عاد أهدا، وفي رجب 408/هـ 1018م بعث بما تقدّم ذكره، وكتب له سجل بذلك، فكان الناظر في جميع رجال الدولة، وجُعِل له في سجله ولاية الإسكندريّة، وتنتيس، ودمياط، والشّريطتين العليا والسفلى، والحسبة، والسيارتين، والعرض، والإثبات، والنظر في الواجبات، ولما هرب ابن الدّابقيّة قال الإمام الحاكم لمن كان بين يديه من خواصه: "متى تهربون؟"، فقال له وزير الوزراء: "هذا يا أمير المؤمنين يهرب إليك، لا عنك، وفي شوال سنة 409/هـ 1019م ركب على رسمه من داره إلى القاهرة، فلما صار بقرب البرك التي تلي الخليج لقيته فارسا منتكرا، فرماه أحدهما برمح جرحه، وولّى هاربا، ولم يُدرِك، فعاد إلى داره مجروحا، ومات من جراحته غد يومه، فركب وليّ العهد، وصلىّ عليه، وواراه، وحضر معه قاضي القضاة(91).

الأمين الظاهر، شرف المُلك، تاج المعالي، ذو الجدين، صاعد بن عيسى بن نسطورس: اصطنعه الحاكم بأمر الله، وأضاف له على رتبة أخيه الشّافي، فخلع عليه في رجب سنة 409/هـ 1019م، وقُدل سيفا مُرصّع الحبال، وتضمّن سجله، أنّه جُعِل قسيم الخلافة، وزال أمره في ذي الحجّة منها قُتل في الشهر المذكور(92).

الأمير شمس المُلك المكين الأمين، أبو الفتح، المسعود بن طاهر الوزان: خُلع عليه في ذي الحجّة من سنة 409/هـ 1019م، وجُعِل واسطة، فنقل جميع الدّواوين إلى داره، وجعل يوما يركب فيه إلى القصر للمطالعة؛ لما يحتاج إليه، واستمرّ على ذلك إلى أن صُرف(93).

الأمير رئيس الرّؤساء، أبو الحسين، عمّار بن محمّد: كان يتولّى ديوان الإنشاء، وإليه أيضا زُمر المشاركة، والمغاربة، والأتراك، وهو الوساطة بين الحضرة، وبين هذه الطوائف، وفي جمادى الآخرة سنة 411/هـ 1021م وقّع عن حضرة أمير المؤمنين "الحمد لله ربّ العالمين، ولم يزل على ذلك إلى تولّي بيعة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله أمير المؤمنين(94).

خلافة الإمام الظاهر لإعزاز دين الله، الأمير رئيس الرّؤساء، خطير المُلك، أبو الحسين، عمّار بن محمّد: تولّى أمر البيعة الظاهريّة يوم عيد النحر 411/هـ 1021م/ واتفق هذا اليوم أن دُعي للإمام الحاكم في خطبة العيد، ثمّ بويع للإمام الظاهر بعده بعد عودة القاضي من المصلّى، فكان ذلك عين الدّعاء في الخطبة للإمام الحاكم، وبين أخذ البيعة للإمام الظاهر ثلاث ساعات، ولم يتفق مثل ذلك، وفي ربيع الأوّل 412/هـ 1022م خُلع

عليه للوساطة، وكتب له سجل بذلك، وزال أمره في ذي القعدة من السنة المذكورة، وكانت مدة نظره سبعة أشهر، وأيام قتل في الفج⁽⁹⁵⁾.

يد الدولة، أبو الفتوح، موسى بن الحسن: كان يتولّى الشرطة السفلى، وخُلع عليه لولاية الصعيد في جمادي الآخرة 412/1022م، ثم ولي ديوان الإنشاء عوضاً عن ابن خيران، وخُلع عليه للوساطة في محرّم سنة 413/1023م، ثم قبض عليه في العشرين من شوال منها في القصر، واعتقل، وزال أمره، فكانت مدة وساطته تسعة أشهر قبض عليه في القصر، وأخرج مسحوباً في اليوم المذكور، واعتقل ذلك اليوم، وأخرج في غده، فقتل في الفج⁽⁹⁶⁾.

خلافة الإمام المستنصر بالله، الوزير الأجل، أبو القاسم، علي بن أحمد: تولّى أخذ البيعة المستنصرية في شعبان 427/1036م، وتمادى على رسمه في النظر، والتدبير، وكان سير أمير الجيوش الدزيري إلى الشام لقتال حسّان بن جراح، وصالح بن مرداس، فقتل صالحاً، وهرب حسّان، ثم قتل شبل الدولة، وأد صالح، وعظم أمره بالشام، وأطرح الوزير الجرجاني، وقصر به، فدبر عليه إلى أن خرج من دمشق، وجاء إلى حلب، وواليتها يومئذ أحد غلمانه، فلقية، وخدمه، وأقام عنده نحواً من شهر، ومات، وذلك في سنة 435/1044م، ولحق الوزير به، فتوفي سنة 436/1045م⁽⁹⁷⁾.

الوزير الأجل، تاج الزياصة، فخر الملك، مصطفى أمير المؤمنين، أبو منصور، صدقة بن يوسف الفلاحي: كان يهودياً، وهده الله إلى الإسلام، وكان موصوفاً بالبراعة في صروف الكتابة، وكان ناظراً على الشام، ولما خاف أمير الجيوش الدزيري هرب، فاجتهد في طلبه، فلم يظفر به، ووصل إلى الباب، فرعى الجرجاني حُرمة انفصاله عنه، ومفارقة إياه، وأشار في مرضه بأن يستوزر بعده، فلما توفي استقرت الوزارة له، وحكي أنه أملى سبجاً تقليده ليلة اليوم الذي خُلع عليه فيه، وذلك من سنة 436/1045م، وكان أبوسعد التستري يتولّى ما يخصّ السيدة الوالدة، وعظم شأنه إلى أن صار ناظراً في جميع أمور الدولة، فلا يخرج شيء عمّا يرسمه، ولا يعمل الوزير إلا ما يحده له، ويمثله فكره الفلاحي ذلك، وأنف منه، فدبر عليه، وحمل جماعة من الأتراك على قتله، ففتكوا به عند دخوله من باب القنطرة، متوجهاً إلى القصر، وقطع لحمه، وطيف به، وظنّ الفلاحي أنّ الدنيا قد صفت له، وأنه قد أمن ما يكرهه، فما تهنأ بعمره، ولا استمتع بنهيه، وأمره، وقبض عليه سنة 439/1048م، واعتقل، وقتل⁽⁹⁸⁾.

سيد الوزراء، ظهير الأنمة، سماء الخلصاء، فخر الأمة، أبو البركات الحسين: هو ابن عماد الدولة، محمّد، أخي الوزير، أبي القاسم، علي بن أحمد الجرجاني، وليّ بعد قبض الفلاحي سنة 440/1049م، وكثر في أيامه القبض، والمصادرات، واصطفاء الأموال، والنفي، وكان يبطش، ثم بَطش به من غير استئذان، اعتزازاً بعبادة الدولة في تركّ اعتراض الوزراء، وذلك يحفظ عليه، ويحفظ منه، فلما زاد هذا الفعل قبض عليه، وصُرف في شوال سنة 441/1050م، وتنفّل في الوزارة، ونُفي إلى الشام، ثم عاد، وتصرفت به الأحوال إلى أن صار إلى دمشق، فلما ملكها العزّ عاد، وتوفي بقيسارية⁽⁹⁹⁾.

عميد الملك، زين الكفاة، أبو الفضل، صاعد بن مسعود: من شيوخ الكتاب، وأكابر أصحاب الدواوين، وكان يتولّى ديوان الشام، ثم عاد، وتصرفت به الأحوال إلى أن قبض على الوزير أبي البركات، وعرضت الوزارة على اليازوري، فامتنع منها، وهابها، فجعل عميد الملك هذا واسطة، لا وزيراً، وخُلع عليه، وذلك في سنة 441/1050م، ثم صُرف في محرّم سنة 442/1052م⁽¹⁰⁰⁾.

الوزير الأجل الأوحى المكين، سيد الوزراء، تاج الأصفياء، قاضي القضاة، علي بن عبد الرحمن اليازوري: كان أبوه من أهل يازور، قرية من عمل الرملة، وكان من ذوي اليسار، فانتقل إلى الرملة، وشهد فيها، ووليّ ولده هذا الحكم بها بعد وفاة أخيه، فإنه كان يتولّى ذلك، وتعلّق بخدمة السيدة والدة الإمام المستنصر بالله، فلما صُرف وصل إلى الباب، فكان يواصل السّؤال في العود إلى وطنه، وخدمته، فسعى به الأستاذ عدّة الدولة رفق في خدمتها بباب الرّيح بعد قتل أبي سعد التستري اليهودي الذي كان يخدمها، فخلع عليه لذلك، وتولاه وكرهه الوزير أبو البركات تعلّفه بخدمة السيدة، فدبر في نقله إلى الخدمة في القضاء عوضاً من ابن النعمان، وطمع في استخدام ولده بباب الرّيح عوضاً منه، فحصلت الخدمتان له، ولم يتمّ للوزير ما أراد، وكان ولداً اليازوري ينوبان عنه بباب الرّيح، ولما صُوف الوزير، حُوطب على تقلّد الوزارة، فهابها، وامتنع من توليها، فقدم أبو الفضل، صاعد بن مسعود، وخُلع عليه للوساطة، لا للوزارة، فجعل ينصبّ على اليازوري، ويحمل الناس على مكروهه، ويوهمهم أنه سأل لهم في زيادة، أو ولاية، قد اعترض اليازوري⁽¹⁰¹⁾. بما يبطل ذلك،

فُرى سجله بالوزارة، وذلك في سابع محرّم سنة 442هـ/1051م، وُخّل عليه، وأُلقب بالألقاب التي تقدّم ذكرها، ثمّ زيد في نعوته "الناصر للدين، غياث المسلمين"، وجُعِل ذلك أوّل النّعوت، وُغوّض من خالصة أمير المؤمنين "خليل أمير المؤمنين"، ونظر في الوزارة، فنهض، وكان يبدأ باسمه في عنوانات الكتب، ووقاه ملوك الأطراف في المكاتبة حقّه من الرّئاسة، ما خلا معزّ بن باديس الصنّهاجي، فإنّه قصّر به في المكاتبة عمّا كان يكتب به من تقدّمه من الوزراء، فكان يكتب كلاً منهم بعبيده، فجعل يكتبه بصنيعه، فاستدعى نائبه، وعتبه عنده عتبا جميلا، فكتابه النائب، فما رجع، فتوصل اليازوري إلى أخذ سكينه من دواته، ودعى النائب فقال له: قد تطفنا في أخذ السكين، ولو شئنا لتطفنا في ذبحه بها، ودفعها إليه، فأفذهها، وكتب بذلك، فأطلق لسانه فيه، ففسدّ إليه من أخذ نعله، فلما وصلت أحضر النائب، فأعلمه ما ينتهي إليه من جهله، فُبض عليه في محرّم سنة 450هـ/1059م، وسُير إلى تيبس فقتل⁽¹⁰²⁾.

خلافة الإمام المستعلي بالله صلى الله عليه، السيّد الأجلّ الأفضّل: تولى هذا السيّد أخذ البيعة، وعندها تجددت نوبة الإسكندرية، وكثرت الفتن، والحروب، واستمرّ ذلك عدّة أشهر، وكان له جميل الأثر فيه ما هو معروف مشهور، وبعد ذلك وطئ أعمال المملكة كلّها، وشاهد بلاد الحضرة جميعها، وسار إلى الشّام، وفتح البيت المقدّس، ولقيّ الفرنج، وجاهدك بنفسه، وأولاده، وكان كلّ عام يجهز العساكر إليهم برّاء، وبحرا، ولم يزل على ذلك إلى أن انتقل الإمام المستعلي بالله في 6 صفر 495هـ/1102م⁽¹⁰³⁾.

خلافة الإمام الأمر بأحكام الله عليه السّلام السيّد الأجلّ الأفضّل: تولى هذا السيّد الأجلّ أخذ البيعة الأمرية الثلاثاء 17 صفر 495هـ/1102م/ واستمرّ على عادته في النّظر، والتّدبير مازال يجتهد في جهاد الفرنج نيفا وعشرين سنة إلى أن أُغتيل سلخ رمضان 515هـ/1122م، فمضى شهيدا إلى رحمة الله...والعدو باق بالشّام مستولي على معظم ثغوره، وعمله منصرف في سهله، وجبله والله... وكان السيّد الأجلّ الأفضّل لتوفيق الله إياه، ورأفته برعاياه قد ألقى مقاليد، وسياسته الخاصّة، والعامّة إلى الأجلّ المأمون خلد الله أيّامه، فقوّم كلّ معوج معاند، وأصلح كلّ مختلّ فاسد، وحرص على الخيرات حرصا شهد له بقوة الدين، وصحّة اليقين... فلما توفيّ السيّد الأجلّ الأفضّل... غدا النّاس هاجمين، كأنّهم لم يفقدوه، وجرى أمرهم على ما لم ينوّه، ولم يعتقدوه، ولم يكن عندهم لعدمه، إلاّ الحزن على مصابه... لأنّ أحوالهم فسدت، ولا سوق صلاحهم كسدت، ولاريج المضرة عليهم هبت⁽¹⁰⁴⁾.

السيّد الأجلّ المأمون، تاج الخلافة، عزّ الإسلام، فخر الأنام، نظام الدين، خالصة أمير المؤمنين، أبو عبد الله، محمّد بن الأجلّ نور الدّولة، أبي شجاع الأمري: هو أرحم من حاط رعيته، وأنصف من أمضى قضية، وأسبح من أجزل عطاء، إذا بخلت الملوك، وشحّت، وأحكم الحاكمين على المحجّة البيضاء، إذا ثبتت عنده القصص، وصحّت لا يهتك سترا، ولا يخذل حقّا، ولا يتخذ لما، ولا يقطع رزقا، ولا يزال إنعامه مقصيا للهّم مبعدا، ولا ينفك اصطناعه معينا على الدّهر مسعدا إذا عددت مناقبه أبانت عجز الواصف⁽¹⁰⁵⁾.

فدبّر الأموال تدبيرا لا عهد للنّاس بمثله، وعاملهم معاملة تشهد بعناية الله به في قوله، وفعله، فلما توفيّ السيّد الأجلّ الأفضّل شرف الله ضريحه... وُخّل عليه في اليوم الثّاني من ذي الحجّة 515هـ/1122م من الملابس الخاصّة، وطوق يطوق ذهب مُرصّع، وقُدّ سيفا كذلك، وتفرّد بالنّظر، ودُعي له على كلّ منبر بما خرجت نسخته من حضرة أمير المؤمنين "أبا عبد الله، محمّدا الأمري، وأدام له العلو، والبسطة، والتمكين، اللّهمّ اجعل كوكب سعده أبدا عاليا مشرقا، وافتح للدّولة على يديه مغربا، ومشرقا، واقرن أسنته، وصوارمه وثبت اسمه، ونعته على طراز ما يُعمل في أعمال المملكة من الملابس، والفُرّش"⁽¹⁰⁶⁾.

الأزمات الإقتصادية والإجتماعية: عرفت الدولة الفاطمية عدة أزمات تبعا لنظام حكمها وتنوع تركيباتها السكانية أهمّها:

منذ دخول جوهر، والغلاء شديد، فزاد في أيّامه حتّى بلغ القمح تسعة أقداح بدينار⁽¹⁰⁷⁾، وفي سنة 359هـ/970م في سلخ ربيع الآخر، الغلاء، ونزعت الأسعار، وفي الجمعة ثمان خلون من جمادى الأولى صلّى جوهر الجمعة في جامع ابن طولون، وأذن المؤذن "بحيّي على خير العمل"، وهو أوّل ما أذن به بمصر، وصلّى به عبد السّميع الجمعة، فقرأ سورة الجمعة "إذا جاءك المنافقون" وقتت في الرّكعة الثّانية... وانحطّ إلى السّجود، ونسي الرّكوع، فصاح به علي بن الوليد قاضي عسكر جوهر "بطلت الصلاة، أعدّ ظهرا أربعا"، ثمّ أذن بحيّي على خير العمل في سائر مساجد العسكر، وأنكر جوهر على عبد السّميع أنّه لم

يقرأ "بسم الله الرحمن الرحيم" في كلِّ سورة، ولا قرأها في الخطبة، فصلَّى به الجمعة الأخرى، وفعل ذلك، وكان قد دعا لجوهر في الجمعة الخطبة، فأنكر ذلك ومنعه⁽¹⁰⁸⁾.

وفي ذي القعدة ردت الحسبة إلى سليمان بن عزة المغربي، فجمع سماسة الغلات في مكان، وسدَّ الطرق إلا طريقاً واحداً، فكان البيع كلَّه هناك، ولا يخرج قد غلَّة حتى يقف عليه، ومنع جوهر من الدينار كلَّه هناك، ولا يخرج قد غلَّة حتى يقف عليه ومنع جوهر من الدينار الأبيض، وكان بعشرة دراهم، فأمر أن يكون الرّاضي بخمسة عشر درهماً، والمعزي بخمسة وعشرين درهماً، ونصف، فلم يفعل النَّاس ذلك، فردَّ الأبيض إلى ستَّة دراهم، فنتلف، وافتقر خلق⁽¹⁰⁹⁾.

وفي سنة 360هـ/971م في المحرم اشتدَّت الأمراض، والوباء بالقاهرة، وورد جماعة من الوافدين إلى المغرب، وخلع، وفي جمادى الآخرة منع جوهر من بيع الشَّواء مسنوطاً، وأن يسلخ من جلده، وفي جمادى الآخرة نقل جوهر مجلس المظالم إلى يوم الأحد⁽¹¹⁰⁾، وفي ذي الحجة سنة 363هـ/974م منع المعز من وقود النيران ليلة النوروز في السكك، ومن صبَّ الماء يوم النوروز، وفيها حدث وباء بمصر فمات خلق كثير⁽¹¹¹⁾، وفي جمادى الأولى سنة 364هـ/أطلق المعز الجائزة لوفد الحجاز من الأشراف وغيرهم ومبلغها اربعمائة ألف درهم⁽¹¹²⁾، وفي هذه السنة وبعدها 364هـ/975م غلا الرِّفض بمصر، والشام، والمشرق، والمغرب، ونودي بقطع صلاة التراويح من جهة العبيدي⁽¹¹³⁾.

وفي سنة 387هـ/997م محرّم ورد سابق الحاج، فأخبر بتمام الحجّ، والدعاء للحاكم في الحرمين، وفيه نزع سعر القمح، وغيره، وعزَّ وجوده، واشتدَّ الغلاء، ووقع في البلد خوف شديد من طرف رجل من اللصوص في الليل، وكبسه دور النَّاس، فتحارسوا في الليل، وأخذت نساء من الطرقات، وعظم الأمر في ذلك...، ووقف سعر الخبز على أربعة أرطال بدرهم، 390هـ/1000م في أوَّل يوم من محرّم ظهر الحاكم، ودخل النَّاس، فهنوه بالعام، وكان سعر الخبز ستَّة عشر رطلاً بدرهم⁽¹¹⁴⁾.

وفي سنة 395هـ/1005م في سابع محرّم قرىء سجل في الجوامع بأمر اليهود، والنصارى بشدِّ الزنار، وألبس الغيار، وشعارهم بالسَّواد شعار العباسيين، وفي هذا العام فحش كثير، وقدر في حقِّ الشَّيخين رضي الله عنهما، وقرىء سجل من الأئمة بالمنع من أكل الملوخية المحبَّبة كانت لمعاوية بن أبي سفيان، والبقلة المسماة بالجرجير المنسوبة إلى من في يده منها شيء لثلاثة أيام، وأمر النَّاس بحمل ما كان منها إلى دار الضرب، فقلق النَّاس، وبلغ كلَّ درهم من الجدد أربعة دراهم من القطع، وبيع الخبز كلَّ ثلاثة أرطال بدرهم، واللحم رطلين بدرهم، وسعَّر أكثر الأشياء، واستقرَّ كلَّ دينار بثمانين درهماً من الجدد، وسكن أمر النَّاس بعدما ضرب كثير من الباعة بالسَّياط، وشهَّروا، وقبض على جماعة من أصحاب الفقاع، والسَّماكين، وكبست الحمَّامات، وضرب جماعة؛ لمخالفتهم ما نهوا عنه، وشهَّروا⁽¹¹⁵⁾، ويشير السيوطي إلى أنه في هذه السنة قتل الحاكم بمصر جماعة من الأعيان صبراً، وأمر بكُتُب سب الصحابة على أبواب المساجد، والشوارع، وأمر العمال بالسبِّ، وفيها أمر بقتل الكلاب، وأبطل الفقاع، والملوخية، ونهى عن السَّمك الذي لا قشِّر له، وقتل جماعة ممن باع ذلك بعد نهيه⁽¹¹⁶⁾، وفي سنة 396هـ/1006م أمر النَّاس بمصر، والحرمين إذا ذُكر الحاكم أن يقوموا، ويسجدوا في السَّوق، وفي مواضع الاجتماع⁽¹¹⁷⁾.

وفي سنة 398هـ/1008م اشتدَّ الغلاء...، وقرىء سجل بإبطل المكوس، والمؤن التي تؤخذ من المسافرين عن الغلال، والأرز، وبيع الخبز ثلاثة أرطال بدرهم، وتعدَّر، وجوده، وجرى الرِّسم في عيد الغدير على عاداته، واشتدَّ تكالب النَّاس على الخبز، فاجتمعوا، وضجَّوا من قلته، ورفعوا للحاكم قسعة مع رغيفة، وكانت الحملة الدقيق قد بلغت ستَّة دنانير⁽¹¹⁸⁾، وفي سنة 399هـ/1009م رجب كثرت الأمراض في النَّاس، وفشا الموت، وتخوف النَّاس من الحاكم، فكتب عدَّة أمانات لأناس شتى، وتزايدت الأمراض، وعزَّت الأدوية، فبلغ السكر أربعة دراهم للرَّطل⁽¹¹⁹⁾، وفي سنة 401هـ/1011م ضرب جماعة، وشهَّروا؛ لبيعهم الملوخية، والسَّمك الذي لا قشِّر له، وقبض على جماعة بسبب التَّبيذ، واعتقلوا، وكبست مواضع ذلك، ومُنع النَّصارى من الغطاس، فلم يتظاهروا على شاطئ البحر بما جرت عادتهم به⁽¹²⁰⁾، وفي سنة 402هـ/1012م مُنح النَّاس من سبِّ السلف، وضرب في ذلك رجل، وشهَّر، ونودي عليه: "هذا جزاء من سبَّ أبا بكر، وعمر"، وتبرأ النَّاس، فشُنَّ هذا على كثير من النَّاس⁽¹²¹⁾، وفيها نهى الحاكم عن بيع الرُّطب، وحرقه، وعن بيع العنب، وأباد كثيراً من الكروم⁽¹²²⁾.

وفي سنة 404هـ/1014م في محرّم أمر ألا يدخل يهودي، ولا نصراني الحمام، إلا ويكون مع اليهودي جرس، ومع النصارى صليب، ونهى عن الكلام في النجوم، فتغيب عدّة من المنجمين، وبقي منهم جماعة، وطردوا، وحذّر الناس أن يخفوا أحدا منهم⁽¹²³⁾، كما منع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلا، ونهارا، واستمر ذلك إلى أن مات⁽¹²⁴⁾، وفي سنة 405هـ/1015م في المحرّم تزايد وقوع النار، وكثّر الحرق في الأماكن... وأمر بقتل الكلاب⁽¹²⁵⁾، وفي سنة 410هـ/1020م اشتدّ الغلاء بديار مصر، حتّى بيع الدقيق رطلا بدرهم، واللحم أربع أواق بدرهم، ومات كثير من الناس بالجوع⁽¹²⁶⁾، وفي سنة 411هـ/1021م قتل الحاكم بلوان، قرية بمصر، وقام بعده ابنه علي، ولقب بالظاهر لإعزاز دين الله، وتضعفت دولتهم في عهده، فخرجت عنهم حلب، وأكثر الشّام⁽¹²⁷⁾.

وفي سنة 462هـ/1070م فيها فقد الطعام، فسارت التّجار من صقلية، والمهدية في الطعام، فبيع القمح كلّ كيل قروي، وزنة 9 أرطال بدينار نزارى، ثمّ بيع بمنقلين، ثمّ بثلاثة، ثمّ فقد... وطبخ الناس جلود البقر، وباعوها رطلا بدرهمين، وبلغ الزيت أوقية بدرهمين، وأوقية اللحم بدرهم، وبيعت الأمتعة بأبخس ثمن، وباع الناس أملاكهم، ووقع الوباء، فألقى الناس موتاهم في النيل بغير أكفان⁽¹²⁸⁾.

وفي سنة 490هـ/1098م وقع بمصر غلاء، ومجاعة، وفيها تجمّع الرّعايا، والعامّة في يوم عاشوراء بمشهد السيّدة نفيسة، وجهروا بسب الصحابة⁽¹²⁹⁾، وهدّموا عدّة قبور، فسير الأفضل إليهم، ومنعهم من ذلك، وأدب ذخيرة الملك ابن علوان والي القاهرة جماعة، وضربهم⁽¹³⁰⁾، وفي سنة 491هـ/1099م حدثت بمصر لمة غيمة غشت أبصار الناس... استمرت الرّيح بضع ساعات، وانجلت الظّلمة قليلا، وسكنت الرّيح، ولم يصل في ذلك اليوم صلاة الظهر، ولا العصر، وأذن في القاهرة، ولا مصر⁽¹³¹⁾، وفي سنة 521هـ/1128م كثرت مصادرة الرّاهب للكتاب، والعمّال، وتسلسل الأمر إلى التّجار، وأرباب الأموال⁽¹³²⁾.

وفي سنة 526هـ/1132م نهب كثير من الأسواق، ودور الحوانيت، وصار ذلك عادة مستقرّة، وشيئا معهودا في كلّ فتنة⁽¹³³⁾، وفي سنة 526هـ/1132م شعبان غلت الأسعار، وغدم القمح، والشّعير، فبلغ الخبز ثلاثة أرطال بدرهم... والزيت الطّيّب إلى سبعة دراهم للرّطل، والجبن إلى درهمين للرّطل، والبيض إلى عشرين درهما للمائة... وغدم الفرخ، والدجاج، فلم يُقدّر على شيء منه، وعمّ الوباء، وكثّر الموتان⁽¹³⁴⁾، وفي سنة 537هـ/1143م عمّ الوباء بديار مصر، فهلك فيه عالم لا يُحصى عدده كثيرة⁽¹³⁵⁾، وفي سنة 545هـ/1151م أغار جمع كثير من الفرنج على الفرما، ونهبوها، وحرقوها، وأخربوها⁽¹³⁶⁾، وفي عهد الخليفة المستنضيء بأمر الله الحسن 566هـ/575م انقضت دولة بني عبيد، وحُطّب له بمصر، وضربت السكّة باسمه، وجاء البشير بذلك، فغلقت الأسواق ببغداد، وعملت القباب⁽¹³⁷⁾.

- (1) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 19 .
- (2) السيوطي: نفس المصدر، ص 20 .
- (3) نفسه .
- (4) السيوطي: نفس المصدر، ص 21 .
- (5) أنظر، الملحق الخاص بأسماء خلفاء الدولة الفاطمية في المغرب والمشرق، ص .
- (6) المستنعمون من العبيديين أربعة عشر، ثلاثة بالمغرب: المهدي، والقائم، والمنصور، وأحد عشر بمصر، المعزّ، والعزیز، والحاكم، والظاهر، والمنصور، والمستعلي، والأمر، والحافظ، والظاهر، والقائم، والعاقد، وكان ابتداء أمر مملكتهم سنة بضع وتسعين ومائتين، وانقضت في سنة 567هـ/1172م، وقال الذهبي: وهي التّولة المجوسية، واليهودية، لا العلوية، والباطنية، لا الفاطمية، وكانوا أربعة عشر متخفا، لا مستخفا. أنظر، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 35 .
- (7) دمحمّد دخيل: التّولة الفاطمية (التّور السياسي والحضاري للأسرة الجمالية، مؤسسة الإنتشار العربي، بيروت، لبنان، ص 17 .
- (8) المقرئزي (تقي الدّين، أحمد بن علي): إتعاظ الخنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: الدكتور/ جمال الدين الشّيبان، القاهرة 1416هـ/1996م، مصر، ج 1، ص 23 .
- (9) المقرئزي: نفس المصدر، ص 24 .
- (10) المقرئزي: نفس المصدر، ص 26 .
- (11) المقرئزي: نفس المصدر، ص 7 .
- (12) المقرئزي: نفس المصدر، ص 28 .
- (13) المقرئزي: نفس المصدر، ص 9 .
- (14) المقرئزي: نفس المصدر، ص 35 .
- (15) المقرئزي: نفس المصدر، ص 38 .
- (16) المقرئزي: نفس المصدر، ص 39 .
- (17) المقرئزي: نفس المصدر، ص 54 .
- (18) محمّد دخيل: التّولة الفاطمية، ص 19 .
- (19) محمّد دخيل: نفس المرجع، ص 20 .
- (20) نفسه .
- (21) المقرئزي: إتعاظ الخنفا، ج 1، ص 96 .
- (22) المقرئزي: نفس المصدر، ص 97 ؛ يذكر ابن خلّكان، أنّ القائد أبو الحسن، جوهر بن عبد الله المعروف بالكاتب الرومي كان مولى من موالى المعزّ بن المنصور بن القائم بن المهدي صاحب إفريقية، وجّهه إلى التّيار المصرية؛ ليأخذها بعد موت الأستاذ كافر الإخشيدي، وسير معه العساكر، وهو المقدم. أنر، ابن خلّكان: وفيات الأعيان، ج 1، ص 375 .
- (23) المقرئزي: إتعاظ الخنفا، ج 1، ص 96 .
- (24) المقرئزي: نفس المصدر، ص 99، 100 .
- (25) المقرئزي: نفس المصدر، ص 101 .
- (26) المقرئزي: نفس المصدر، ص 115 .

- (27) المقرئزي: نفس المصدر، ص ص 112 ، 113 .
- (28) المقرئزي: نفس المصدر، ص 114 .
- (29) المقرئزي: نفس المصدر، ص 115 .
- (30) المقرئزي: نفس المصدر، ص 116 .
- (31) المقرئزي: نفس المصدر، ص 117 .
- (32) المقرئزي: نفس المصدر، ص 228 ؛ أنظر الملحق رقم2 (خلفاء الدولة الفاطمية)، ص 170 .
- (33) المقرئزي: مصدر سابق، ص ص 229، 230 .
- (34) المقرئزي: نفس المصدر، ص 230 .
- (35) المقرئزي: نفس المصدر، ص 231 .
- (36) المقرئزي: نفس المصدر، ص ص 237 ، 238 .
- (37) المقرئزي: نفس المصدر، ص ص 242-252 .
- (38) المقرئزي: نفس المصدر، ص 267 .
- (39) المقرئزي: نفس المصدر، ص 268 .
- (40) المقرئزي: نفس المصدر، ص 269 .
- (41) المقرئزي: نفس المصدر، ص 271 وما بعدها .
- (42) المقرئزي: نفس المصدر، ج3، ص 3 .
- (43) المقرئزي: نفس المصدر، ص 4 .
- (44) نفسه .
- (45) المقرئزي: نفس المصدر، ص 5 .
- (46) نفسه .
- (47) المقرئزي: نفس المصدر، ص 6 .
- (48) نفسه .
- (49) المقرئزي: نفس المصدر، ص 7 .
- (50) المقرئزي: نفس المصدر، ص 8-18 .
- (51) المقرئزي: نفس المصدر، ص ص 24 ، 25 .
- (52) المقرئزي: نفس المصدر، ص 42 .
- (53) المقرئزي: نفس المصدر، ص 43 .
- (54) المقرئزي: نفس المصدر، ص 44 .
- (55) المقرئزي: نفس المصدر، ص 49 .
- (56) المقرئزي: نفس المصدر، ص 69 .
- (57) المقرئزي: نفس المصدر، ص 71 .
- (58) المقرئزي: نفس المصدر، ص ص 124 ، 125 .
- (59) المقرئزي: نفس المصدر، ص ص 184 ، 85 .
- (60) المقرئزي: نفس المصدر، ص 265 .
- (61) المقرئزي: نفس المصدر، ص ص 265 ، 266 .
- (62) المقرئزي: نفس المصدر، ص ص 266 ، 267 .
- (63) المقرئزي: نفس المصدر، ج 3، ص 11 .
- (64) المقرئزي: نفس المصدر، ص ص 12 ، 13 .
- (65) المقرئزي: نفس المصدر، ص ص 27 ، 28 .
- (66) المقرئزي: نفس المصدر، ص 31 .
- (67) المقرئزي: نفس المصدر، ص 37 .
- (68) المقرئزي: نفس المصدر، ص 41 .
- (69) المقرئزي: نفس المصدر، ص 72 .
- (70) المقرئزي: نفس المصدر، ص 128 .
- (71) المقرئزي: نفس المصدر، ص 130-37 .
- (72) المقرئزي: نفس المصدر، ص 137 .
- (73) المقرئزي: نفس المصدر، ص 193 .
- (74) المقرئزي: نفس المصدر، ص 243 .
- (75) المقرئزي: نفس المصدر، ص 315 – 319 .
- (76) المقرئزي: نفس المصدر، ص ص 330 ، 331 .
- (77) محمّد دخيل: الدولة الفاطمية، ص 25 .
- (78) محمّد دخيل: الدولة الفاطمية، ص 26-29 .
- (79) ابن الصيرفي المصري (أمين الدين، تاج الرئاسة، أبي القاسم، علي بن منجب بن سايمان): الإشارة إلى من نال الوزارة ، عني بتحقيقه والتعليق عليه: عبد الله مخلص، عن النسخة الوحيدة المحفوظة في خزانة الكتب الخالدية ببيت المقدس، ص 94 .
- (80) ابن الصيرفي: نفس المصدر، ص ص 93 ، 94 .
- (81) ابن الصيرفي: نفس المصدر، ص 92 .
- (82) ابن الصيرفي: نفس المصدر، ص 91 .
- (83) ابن الصيرفي: نفس المصدر، ص 87 .
- (84) ابن الصيرفي: نفس المصدر، ص ص 68 ، 87 .
- (85) ابن الصيرفي: نفس المصدر، ص 85 .
- (86) نفسه .
- (87) ابن الصيرفي: نفس المصدر، ص ص 83 ، 84 .
- (88) ابن الصيرفي: نفس المصدر، ص ص 82 ، 83 .
- (89) ابن الصيرفي: نفس المصدر، ص 83 .
- (90) كتامة،
- (91) ابن الصيرفي: نفس المصدر، ص ص 81 ، 82 .
- (92) ابن الصيرفي: نفس المصدر، ص 80 .
- (93) نفسه .
- (94) نفسه .
- (95) ابن الصيرفي: نفس المصدر، ص ص 79 ، 80 .
- (96) ابن الصيرفي: نفس المصدر، ص 79 .
- (97) ابن الصيرفي: نفس المصدر، ص ص 76 ، 77 .
- (98) ابن الصيرفي: نفس المصدر، ص ص 75 ، 76 .
- (99) ابن الصيرفي: نفس المصدر، ص ص 74 ، 75 .
- (100) ابن الصيرفي: نفس المصدر، ص 74 .
- (101) ابن الصيرفي: نفس المصدر، ص 733 .

- (102) ابن الصيرفي: نفس المصدر، ص 68 وما بعدها.
(103) ابن الصيرفي: نفس المصدر، ص 53 .
(104) ابن الصيرفي: نفس المصدر، ص 52، 53 .
(105) ابن الصيرفي: نفس المصدر، ص 51 .
(106) ابن الصيرفي: نفس المصدر، ص 50 .
(107) المقرئزي: إتعاظ الحنفا، ج 1، ص 117 .
(108) المقرئزي: نفس المصدر، ص 12 ، 121 .
(109) المقرئزي: نفس المصدر، ص 121 ، 122 .
(110) المقرئزي: نفس المصدر، ص 128 .
(111) المقرئزي: نفس المصدر، ص 114 ، 115 .
(112) المقرئزي: نفس المصدر، ص 216 .
(113) السنيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 299 .
(114) المقرئزي: إتعاظ الحنفا، ج 2، ص 8-25 .
(115) المقرئزي: نفس المصدر، ص 69 .
(116) السنيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 300 - 303 .
(117) السنيوطي: نفس المصدر، ص 303 .
(118) المقرئزي: إتعاظ الحنفا، ج 2 ، ص 74 .
(119) المقرئزي: نفس المصدر، ص 77 ، 78 .
(120) المقرئزي: نفس المصدر، ص 86 .
(121) المقرئزي: نفس المصدر، ص 98 .
(122) السنيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 304 .
(123) المقرئزي: إتعاظ الحنفا، ج 2، ص 100 .
(124) السنيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 304 .
(125) المقرئزي: إتعاظ الحنفا، ج 2 ، ص 105 .
(126) المقرئزي: نفس المصدر، ص 115 .
(127) السنيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 304 .
(128) المقرئزي: إتعاظ الحنفا، ج 2 ، ص 307 .
(129) المقرئزي: نفس المصدر، ص 19 .
(130) المقرئزي: نفس المصدر، ص 211 .
(131) المقرئزي: نفس المصدر، ص 22 .
(132) المقرئزي: نفس المصدر، ص 119 .
(133) المقرئزي: نفس المصدر، ص 143 .
(134) المقرئزي: نفس المصدر، ص 176 .
(135) المقرئزي: نفس المصدر، ص 177 .
(136) المقرئزي: نفس المصدر، ص 201 .
(137) السنيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 322 .

8 . سقوط الدولة الفاطمية، وظهور الدول السلطانية (الأيوبية، المملوكية): أولاً . الدولة الأيوبية:

تنتسب الدولة الأيوبية إلى أيوب، والد السلطان صلاح الدين الأيوبي، وهو أبو الشكر، أيوب بن شادي بن مروان، الملقب "الملك الأفضل نجم الدين، والد صلاح الدين كان في أول أمره متسلماً قلعة تكريت هو وأخوه أسد الدين شركوه يديران أحوالها، وينظران في أمورها، وتوفي والدهما شادي بها، وهناك قبره، وولد له بها صلاح الدين، ومولده هو بمدينة "دوين من أعمال أذربيجان، ثم انتقل إلى الموصل، والشام، وأقام بها مدة، ثم اتصل بخدمة نور الدين، محمود بن زنكي صاحب الشام، وكان مقبلاً عليه، مكرماً له، ولماً وزر ولده صلاح الدين للعاقد صاحب مصر سنة 564هـ/1169م توجه إليه والده نجم الدين من الشام، ودخل القاهرة لست بقبين من رجب 565هـ/1170م، وخرج العاقد للقائه، وسلك صلاح الدين معه من الأدب ما جرت به العادة، وألبسه الأمر كله، فأبى أن يلبسه، وقال: "يا ولدي، ما اختارك الله لهذا الأمر، إلا، وأنت كفو له، ولا ينبغي أن تغير موضع السعادة"، فحكّمه في الخزان كلها، وكان كريماً، يُطلب، فلا يرد⁽¹⁾ .

ولم يزل عنده حتى استقل صلاح الدين يوماً من باب النصر، أحد أبواب القاهرة، فشبّ به فرسه، فألقاه في وسط اللجة يوم الإثنين 28 ذي الحجة 568هـ/1173م، وحمل إلى داره، وبقّي متألماً إلى أن مات يوم الأربعاء 27 ذي الحجة، ودُفن عند قبر أخيه أسد الدين شركوه، ثم نُقل إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم...ولماً توفي كان صلاح الدين غائباً في غزوة الكرد، وهي أول غزواته⁽²⁾، أما السنيوطي، فذكر الآتي، في سنة 549هـ/1155م، قُتل بمصر صاحبها الظاهر بالله العبيدي، وأقاموا ابنه الفائز صبيّاً صغيراً، وولّى أمر المصريين، فكتب المقتفي إلى نور الدين، محمود بن زنكي، وولاه مصر، وأمره بالمسير إليها، وكان مشغولاً بحرب الفرنج، وكان تملك دمشق، في صفر من هذا العام، وملك عدة حصون، وقلاع بالسيف، وبالأمان من بلاد الروم، وعظم صيته، فبعث إليه المقتفي تقليداً، وأمره بالمسير إلى مصر، ولقبه "الملك العادل"، وعمّ سلطان المقتفي، واشتهر على المخالفين، حتى مات الأحد ثاني ربيع الأول سنة 550هـ/1156م⁽³⁾ .

وفي سنة 564هـ/1169م قصدت الفرنج الديار المصرية في جيش عظيم، فملكوا بلبس، وحاصروا القاهرة، فأحرقها صاحبها خوفاً منهم، ثم كاتب السلطان نور الدين يستنجد به، فجاء أسد الدين بجيوشه، فرحل الفرنج عن القاهرة لَمَّا سمعوا بوصوله، ودخل أسد الدين، فولاه العاضد صاحب مصر الوزارة، وخلع عليه، فلم يلبث أسد الدين أن مات بعد خمسة، وستين يوماً، فولى العاضد مكانه ابن أخيه "صلاح الدين، يوسف بن أيوب"، وقلده الأمور، ولقبه "الملك الناصر"، فقام بالسلطنة أتم قيام، وفي عهد الخليفة المستضيء بأمر الله، الحسن 566هـ/575هـ زالت دولة بني عبيد، وحُطِب له بمصر، وضربت السكة باسمه، وفي أيامه ضعُف الرِّفْض ببغداد، ووهى، وأمن النَّاس (4).

وفي سنة 569هـ/1174م أرسل نور الدين إلى الخليفة بتقادم، وتُحَف منها، حمار مخطَّط، وثوب، وخرج الخلف للفرجة عليه، وفيها وقع بردٌ بالسَّواد كالنَّارنج هَدَم الدَّور، وقتل جماعة، وكثيراً من المواشي، وزادت دجلة زيادة عظيمة بحيث غرقت بغداد، بحيث صُلِّيت الجمعة خارج السَّور، وزادت الفرات أيضاً، وأهلكت قرى، ومزارع، وابتهل الخلق إلى الله، ومن العجائب أنَّ هذا الماء على هذه الصفة، ودجيل قد هلكت مزارع بالعطش (5)، واستمرت هذه الدَّولة حتَّى بعد وفاة السلطان صلاح الدين الذي تنازع أولاده وأخيه العادل وتنازعا فيما بينهم حتَّى انتهت الدولة الأيوبية في سنة 648هـ/1250م.

ثانياً . الدَّولة المملوكية:

المماليك (6) يقصد بهم اصطلاحاً: جموع الرِّقِيق الأبيض (7) وهم جماعة عسكرية ترجع أصولها إلى الأتراك، أو الجراكسة (8)، اشتهر منهم الأتراك الذين كانوا موضع تفضيل في المشرق الإسلامي؛ لشجاعتهم، ووفائهم، وصفاتهم المميزة (9) مصدرهم الأول أواسط آسيا، ثمَّ غربها خاصة بلاد القفجاق (10)، وأنحاء من أوربا، وبلاد بحر البلطيق (11)، أما الصقالبة، فقد اختصَّ بهم الأمويون في الأندلس، والأغالبة، ثمَّ الفاطميون في المغرب، ومصر، وكان يُجلب معظمهم من سواحل البحر الأسود، لمبارديا،... (12).

تمَّ جلبهم عن طريق الهبات، والهدايا (13)، ومن الحرب، والأسر، والتَّهب، والبيع من طرف آبائهم نتيجة للظروف المعيشية التي كانوا يعيشونها (14)، واختصَّ تجار في بيع المماليك عُرفوا بالنَّحاسين، وحُصِّصت لهم أسواق تُدعى أحياناً بدار الرِّقِيق، كما في بغداد (15)، وسمرقند كانت أكبر سوق لهم، وسوق سامراء (16)، ويعود بداية ظهور المماليك في الدَّولة الإسلامية إلى القرن الأول الهجري /السابع الميلادي نتيجة للفتوحات الإسلامية العربية التي وصلت إلى بلاد ما وراء النَّهر، وما أحدثته من الحصول على الأسرى، ويعتبر الخلفاء العباسيون أول من استعان بالمماليك، واعتمدوا عليهم في توطيد نفوذهم مع اختلاف المؤرخين في فترة ظهورهم، فهناك من أرجعه إلى عهد الخليفة المأمون الذي أكثر من شراء المماليك بعد أن خشي من ازدياد نفوذ الفرس، وتشكيكه فيهم (17).

شكَّل الخليفة المعتصم من المماليك فرقا عسكرية بلغ عددهم حوالي عشرة آلاف (18)، كما قُلد البعض منهم مناصباً علياً بعد أن أسقط العرب من وظائف الدَّيوان، فولَّى الكثير منهم فيها كوضعه أثناس نائبا عنه في بلاد المغرب (19)؛ لأنَّه لم يكن يثق بالفرس، كما أراد أن يكسر شوكتهم (20)، وبازدياد نفوذ، وعبث، وتسلط هؤلاء المماليك ضجر أهل بغداد منهم، وكذا ما سببوه للنَّاس من أذى، فاضطرَّ الخليفة إلى بناء مدينة سامراء؛ لإسكانهم فيها (21) نمت قوتهم، وأضحى لهم أثر كبير في الحياة السياسية، والاجتماعية، فأصبحوا يتحكمون في السُّلطة، حيث يعزلون، ويؤلون الخلفاء حتَّى قُتل بعض الخلفاء نتيجة لمؤامراتهم مثل، ما حدث للخليفة المعتز 255هـ/868م (22)، كذلك ما فعله الوزير نظام المُلْك بعد أن أحاط نفسه بالمماليك، وقاموا بعزل ابنه محمود، وولوا بركياروق (23).

أما عن ظهور المماليك في مصر، فيرجع ابن تغري بردي ذلك إلى عهد أحمد بن طولون مؤسس الدَّولة الطولونية 254هـ-292هـ/868م-905م عن طريق استخدامهم لتقوية جيشه، فوصل عددهم إلى أربعة وعشرين ألف مملوك، كذلك رغبة منه في الاستقلال عن الخلافة العباسية، وسارت على نهج الدَّولة الإخشيدية 323هـ-358هـ/935م-969م في الاعتماد على المماليك، ثمَّ الفاطميين باتخاذهم القاهرة مركزاً لهم سنة 358هـ/968م، وسار خلفاؤها على الطريقة العباسية (24)، فالخليفة الفاطمي العزيز ولي مملوكه "بنجوتكين التركي" قيادة الجيش، كما ولَّاه بلاد الشام (25)، وبانتقال السُّلطة إلى الأيوبيين 567هـ-648هـ/1171م-1250م أكثروا من شراء المماليك، فتشكَّلت منهم عدَّة فرق (26).

اعتبر المؤرخون الصالح نجم الدين أيوب أكثر الخلفاء شراءً للمماليك؛ إذ صار معظم جيشه منهم بعد أن تخلى عنه الأكراد، وغيرهم⁽²⁷⁾، واعتمد عليهم بتقديم النصح، وثباتهم حوله⁽²⁸⁾ كانوا نحواً من ألف⁽²⁹⁾ أعطى لهم الحرية التي استغلّوها في مضايقة الناس، والعبث، والاعتداء على ممتلكاتهم⁽³⁰⁾، وبعد الشكاوى التي تلقاها من الناس رأى أن يُعدهم عن العاصمة، وبنى لهم سنة 638 هـ/1241م قلعة⁽³¹⁾ قريبة من المقياس، وأمرهم بالإقامة فيها، كانت عدّتهم ألف مملوك⁽³²⁾ اتخذها مقرّاً لمُلكه، وزوّدها بالعتاد الحربي؛ ليكونوا على أهبة الاستعداد لأيّ طارئ⁽³³⁾، وفعلاً شنّ الصليبيون حملة تحت قيادة الملك الفرنسي لويس التاسع على الديار المصريّة في الوقت الذي كان فيه الملك الصالح نجم الدين، أيوب يصارع الموت، وعند اشتداد مرضه أوصى بأن يتولّى مقاليد الأمور بعد وفاة الخليفة العباسي المستعصم؛ ليبيدي رأيه، ويتولّى زمام الأمور، غير أنّ الأمور سارت على غير ما خطّط لها، فقد تمكّنت شجر الدر⁽³⁴⁾ زوجته من السيطرة على الموقف؛ إذ أخفت خبر وفاة زوجها السلطان صالح، وأرسلت تطلب ابنه "توران شاه" من حصن كيفا⁽³⁵⁾.

فلما وصل الخبر إليه بوفاة أبيه عن طريق الأمير فارس الدين أقطاعي الجمدار سنة 648هـ/1250م عزم على الرّحيل لاستلام إدارة البلاد، فتولّى مهمّة الإشراف على قيادة الجيش، فاستطاع أن يحقّق نصراً على الصليبيين في فارسكور، وتمكّن من أسر الملك لويس التاسع في محرّم سنة 648هـ/1250م⁽³⁶⁾، وكان لهذا النصر أثراً على المماليك البريّة، فاستاء الأمراء منه؛ لأنّه أبعد غلمان والده، وقرب إليه الغلمان الذين جلبهم من الشرق على ما يبدو.

قيام دولة المماليك: بعد أن أعلن تورانشاه سلطاناً سنة 648هـ/1250م استعان بالمماليك الذين جلبهم معه من حصن كيفا، وأغدق عليهم الرّواتب، والإقطاعات⁽³⁷⁾، فاستاءت منه المماليك؛ لأنّها رأته سيقف إلى جانب المماليك البحرية، وتنكّر تورانشاه لشجر الدر، فبعث إليها يهدّدها، ويطلب منها مال والده، ويصف المقرّيزي درجة مقتله للمماليك بقوله: أنّ تورانشاه إذا سكر جمع الشّمع، وضرب رؤوسها حتّى تنقطع، ويقول: "هكذا أفعل بالبحرية"⁽³⁸⁾، فأنّفت شجر الدر، والمماليك على قتله، والتّخلص منه، فدبّروا له مكيدة، وما إن وصل الملك تورانشاه إلى فارسكور، وحطّ على خيمته حتّى أجهز الأمراء عليه، وقطع ركن الدين بيبرس أصابعه بالسيف، واستطاع أن ينفذ بأمره إلى البرج، وأحرق البرج، وألقى بنفسه في مياه النيل⁽³⁹⁾، ولم يجرؤ أحد على إنقاذه بعد استنعاثه، فمات، وبقيت جثته على الشاطيء، وبعدها دُفن⁽⁴⁰⁾.

كان مقتله بداية لانهايار الدولة الأيوبيّة، وبداية انتقال السّلطة إلى المماليك، فأعيدت الأمور إلى شجر الدر في مصر بموافقة الأمراء، خاصّة وأنّ بعض أمراء البيت الأيوبي كانوا يسعون إلى الحكم، فضلاً عن الخوف من مجيء الصليبيين إلى مصر؛ للانتقام؛ لما حلّ بحملة الملك لويس التاسع؛ لذا وقع الاختيار عليها للسّلطنة⁽⁴¹⁾، وغيّنت شجر الدر على رأس السّلطنة، ووضع الأمير عزّ الدين أيبك التّركماني 648هـ/1250م-655هـ/1257م مدبراً للمملكة، فأخذت تتقرّب من الخاصّة، والعامّة، وتعمل على إرضائهم بكلّ الوسائل، خاصّة الإقطاعات، والرّواتب رغم المعارضة التي تلقّتها من الشعب الذي قام بالتّشويش، والتّهب في القاهرة، فغلقت أبوابها خوفاً من تسرب الإضطراب، وأرجع السيّوطي الفوضى إلى رجال الدين الذين عابوا حكم امرأة، كما تلقّت رفضاً من طرف الخليفة المستنصر بالله الذي أرسل إليهم يقول: "أعلمونا، إن كان ما بقي لكم في مصر من الرّجال من يصلح للسّلطنة، فنحن نرسل لكم من يصلح لها"، وهدّدهم، وأمرهم بالعدول عن ذلك، ونبيلوغ شجر الدر الأمر خلعت نفسها، وتزوجت من الأمير عزّ الدين أيبك التّركماني، وتولّى السّلطنة⁽⁴²⁾.

ظنّ المماليك أنّ اختيار عزّ الدين أيبك سيكون في يدهم، فكلموا أبادوا عزله كان لهم ذلك؛ لضعفه، لكن أظهر لهم العكس خاصّة بإثبات مقدرته من خلال تخطّيه للعقبات، خاصّة الخطر الأيوبي بالشّام بعدما رفضوا الإعراف بحكمه؛ لاعتقادهم أنّهم أصحاب الحقّ الشرعي فيه، فتكتلوا تحت قيادة النّاصر يوسف الأيوبي، ثمّ زحفوا على مصر؛ لاسترداد ملكهم، ولتهديئة الوضع لجا المماليك لوضع الملك مظفر الدين الأشرف موسى الذي كان له من العمر ستّ سنوات سلطاناً، وشريكا للسلطان المعزّ أيبك، كما أعلن أنّ مصر تابعة للخلافة العباسيّة ببغداد، وأنّه نائب الخليفة بمصر⁽⁴³⁾.

لكنّ النّاصر يوسف الأيوبي واصل المعارضة، فاضطرّ السلطان لإرسال جيش، والقيام بحركة اعتقالات واسعة عبّر عنها المقرّيزي " ... لو ملك الفرنجة بلاد مصر ما زادوا في الفساد على ما فعله البحرية... "⁽⁴⁴⁾، وصار السلطان المعزّ حاكماً بمفرده بعد أن عزل الملك الأشرف 650هـ/1252م، وقطع الخطبة له، ثمّ بعثه

إلى القسطنطينية 653/1255م؛ لذلك تدخل الخليفة العباسي لإصلاح ما بين مصر، والشام إثر ظهور خطر المغول، ونهبهم لميفارقين، وديار بكر، وتقرر الصلح 651/1253م بأن تبسط مصر سلطانها على ما يقع غرب الأردن من أرض فلسطين بما فيها بيت المقدس، غزة، نابلس، والساحل كله ويطلق السلطان المعز أيبك جميع أسرى الملك الناصر يوسف، وتكون بقية بلاد الشام للأيوبيين⁽⁴⁵⁾.

والمشكل الثاني الذي تعرّض له هو تمرد المماليك البحرية، إلا أنه تخلّص منهم بمجرد القضاء على زعيمهم الأمير فارس أقطاي، فتشتتت مماليكه، أما الخطر الثالث، فهو ثورة البدو، أو الأعراب تحت قيادة حصن الدين بن ثعلب؛ إذ قام هؤلاء بقطع الطرق التجارية بعد أن اعتبروا المماليك عبيدا، وأتهم ليسوا من أصل البلاد، وصلوا إلى الحكم عن طريق الاستبداد، فحثوا الأيوبيين بغزو مصر، فأرسل إليهم السلطان أيبك جيشا هزمهم، وحبس زعيمهم، وفرض عليهم الضرائب، وعاملهم بقسوة⁽⁴⁶⁾.

أما الخطر الأخير وهو الذي أودى بحياته هي زوجته شجر الدر التي اختلف المؤرخون في سبب قتلها لزوجها، لكن السبب الأقرب هو سيطرتها على الأمور؛ لأنها كانت تنازلت بالقوة عن العرش، فبدأت في تدبير مؤامرة لقتله تزعمها المماليك البحرية، وتم لهم ذلك 655/1257م، وبوصول خبر مقتله إلى المماليك المعزية قتلوها، فخلا العرش، فقررت المماليك وضع ابنه نور الدين علي بن أيبك سلطانا 655/1257م- 658/1259م، وكان عمره 15 سنة، وألقب بالمنصور، وعينوا له نائبا في السلطنة هو الأمير سيف الدين قطز⁽⁴⁷⁾.

واستطاع قطز الوصول إلى الحكم بعد اضطراب أوضاع مصر، فانتهاز الفرصة، وقبض على نور الدين، وسجنه بثر دمايط، وأعلن سلطانا سنة 658/1259م، وبزّ عزله للسلطان المنصور بظرف الغزو المغولي، قائلا: أنا ما قصدت أن نجتمع على قتال، ولا يأتي ذلك بغير مُلك، فإذا خرجنا، وكسرنا هذا العدو، فالأمر لكم، أقيموا في السلطنة من سنتم...⁽⁴⁸⁾، وذلك بعد استيلاء هولاء على حلب سنة 657/1258م، وسقوط دمشق سنة 658/1259م، وانتهت المقاومة الأيوبية⁽⁴⁹⁾، ولما تسلطن قطز قبض على كل من توهم فيهم الخطر من الأمراء، وبدأ يستعد لمواجهة التتر، فكان اللقاء معهم قرب مدينة "بيسان" في موضع يقال له: عين جالوت، في 25 رمضان 658/سبتمبر 1260م إنتصر المسلمون، وفرّ التتر من دمشق، ومن نتائجها اعتراف بعض أمراء بني أيوب بالتبعية للمماليك، وبينما كان قطز يستعد للعودة إلى مصر التي تهيات لاستقباله بما حقّقه جيوشه من انتصارات، وضّم بلاد الشام قتله الأمير ركن الدين بيبرس بعد أن رفض إعطاء نيابة حلب التي كان قد وعده بها⁽⁵⁰⁾.

بيبرس كان من مماليك السلطان السابق، فكان هو والمماليك يتحينون الفرص للقضاء على قطز، وتم لهم ذلك سنة 658/1260م بمقتله، وتقدّم الأمراء، وبايعوا الأمير بيبرس 658-676/1260م-1277م قرب الصالحية، ثم ركبوا قاصدين القاهرة، ودخلها، وجلس على سدة الحكم⁽⁵¹⁾، وتقرّب بيبرس من الخاص، والعام، وخفّف الضرائب على الأهالي، وعفا عن المحبوسين، وأفرج عنهم، وقضى على الإضطرابات التي أثارها حركات التمرد، وأحيا الخلافة العباسية التي كانت شاغرة في مصر منذ سنة 656/1258م، وكان هدفه من وراء ذلك الحصول على تفويض شرعي لحكمه، وإعطاء مكانة لسلطة المماليك، مع وجود الخليفة في مصر، وتخوفه من قيام الشيعة بإحياء الدولة الفاطمية⁽⁵²⁾.

فتك بيبرس بالمماليك المعزية، وقضى على مؤامراتهم، وأذلّ الفرنجة... وفتح جملة من البلاد منها، الكرك، وقيسارية،... ورتّب أمور الدولة، وقام بعدة إنجازات منها، تجديد الحرم الشريف، وعمارة قبة الصخرة، وبيت المقدس، وعمّر دار الذهب بقلعة الجبل، وأنشأ الجيش الكبير... وهو المؤسس الحقيقي للدولة المملوكية، ثم توفي سنة 676/1277م، وانتقلت الخلافة إلى ولده السعيد ناصر الدين، محمّد، المعروف بـ"بركة خان"، لكنّه اضطرّ إلى التنازل عن العرش سنة 678/1279م بسبب ضعفه، فقيل: أنّه كان تحت تأثير والدته، وسياستها التي أغضبت الأمراء، فاتفقوا على تعيين أخيه بدر الدين سلامش سنة 678/1279م سلطانا، وهو في سنّ السابعة، وتلقّب بالملك العادل، وأختير الأمير سيف الدين قلاوون⁽⁵³⁾ أتابكا له، وأرسل الملك السعيد إلى الكرك⁽⁵⁴⁾.

دور أسرة قلاوون في الدولة المملوكية: كان السلطان بيبرس يعرف دهاء الأمير سيف الدين قلاوون، وشعر بازدياد نفوذه، فرّج ابنه الملك السعيد بركة سنة 674/1275م بابنته "كحيلة" ظلّا منه أنّه يضمن بقاء العرش له، ولن يطمع في انتزاع الملك، لكنّ الأمير سيف الدين قلاوون لم يعترض وصول بركة خان في

الوصول إلى الحكم؛ بل قام بالتخلص من بعض الأمراء المنافسين له، وأحسن إلى المماليك البحرية، وأغدق عليهم الإقطاعات؛ ليستميلهم إلى صفه، وعندما تهيأت له الظروف دعى الأمراء، وتحدث معهم عن صغر سنّ السلطان سلامش، فاستقرّ الرأى على توليته منصب السلطنة سنة 678هـ/1279م، ولُقّب بالملك المنصور، وخطب له، وأرسل السلطان، وأخاه إلى قلعة الكرك⁽⁵⁵⁾.

تلقى السلطان المنصور قلاوون معارضة من الأمير سنقر الأشقر نائب دمشق الذي رفض الاعتراف به، وامتنع عن مبايعته، كما دعى أهل دمشق للخروج عن طاعته، وأعلن نفسه سلطاناً سنة 678هـ/1280م، وتلقّب بالكامل، لكنّه استطاع القضاء عليه، فأنزل به هزيمة سنة 679هـ/1281م، كما تعرّض أيضاً عام 680هـ/1282م إلى مؤامرة من بعض الأمراء الظاهريّة، لكنّه علم بهم، واحتاط منهم، وكشف أمرهم، فطلبوا العفو منه، والأمان منه⁽⁵⁶⁾، وسار على سياسة بيبرس، فقام بنكث الهدنة التي كان عقدها مع الصليبيين سنة 680هـ/1282م مدتها عشر سنوات، فاستعاد حصن المرقب بعد مخالفتهم، واعتراضهم لقوافل المسلمين سنة 684هـ/1286م بعد أن حاصرها، ما أدّى بأمر طرابلس؛ لتسليم السلطان "مرقية"، كما طلب حاكمه بيروت منه الصلح لمدة عشر سنوات، وتنازلت عن نصف صور... وقام بجيش سنة 688هـ/1300م لملاقاة الصليبيين بعد أن وصلت رسالته بأنهم نقضوا الهدنة التي كان من شروطها الائتمان على رعايا السلطان، والتّجار ببلاده، فحاصروا طرابلس، ودخلوها سنة 688هـ/1300م، ثمّ أمر السلطان بتدميرها، ووضع حجر الأساس لبناء مدينة جديدة⁽⁵⁷⁾.....

ولدت دولة المماليك وسط صراع ضدّ الفرنجة الذين احتلّوا الشام، لكنّها استطاعت توطيد نفوذها، وسلطانها؛ لتقضي على الأخطار الخارجية، وكان للمماليك حكم أسرة أخرى المماليك البُرجية... المهمّ أنّ نهاية دولة المماليك في سنة 1516م/1517م.

- (1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص26.
- (2) نفسه.
- (3) السبوطي: تاريخ الخلفاء، ص319.
- (4) السبوطي: نفس المصدر، ص322.
- (5) السبوطي: نفس المصدر، ص323.
- (6) المماليك: كلمة مملوك لغة، معناه العبد الذي سبّ، ولم يملك أبواه؛ أي أنّهم استعبدوا وهم أحرار، والعبد القنّ هو الذي مُلك هو وأبواه. أنظر، ابن منظور: لسان العرب، م5، ص528.
- (7) آدم متز: الحضارة العربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج1، ص215.
- (8) بلاد الجركس هي ما نسميه اليوم أذربيجان، وجورجيا، بين بحر قزوين، والبحر الأسود. أنظر، يوسف علي يوسف: تاريخ العالم الإسلامي، دار طباعة المحمدية بالازهر، القاهرة، ط، 1962م، ص41.
- (9) القلقشندي: صبح الأعشى، المطبعة الأميرية، القاهرة، ج4، ص485.
- (10) بلاد القفجاق: إقليم في حوض الفولغا في الجنوب الشرقي من بلاد روسيا، وشمالى البحر الأسود، والقوقاز. أنظر، سهيل طفوش: تاريخ المماليك البحرية في مصر والشام 648-1250هـ/1517م، دار النفايس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط، 1416هـ-1997م، هامش3، ص21.
- (11) فايد عاتشور: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، دار المعارف، مصر، ط1975م، ص13.
- (12) ابن حوقل: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1992م، ص105، 106.
- (13) محمود شلبي: حياة الملك الظاهر بيبرس، دار الجبل، بيروت، لبنان، ط1، 1992م، ص12.
- (14) القلقشندي، مصدر سابق، ص465.
- (15) دم متز: مرجع سابق، ج، ص217، 218.
- (16) ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، م2، ص420.
- (17) سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، ط1، 1976م، ص3.
- (18) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، علّق عليه: محمّد حسين الدّين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 199م، ج2، ص44.
- (19) الكندي: الولاة والقضاة، تحقيق: حسن أحمد محمود، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ص11.
- (20) ابن عبد الظاهر: تشرىف الأيّام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: مراد كامل، مراجعة: محمّد علي النّجار، الشركة العربية للطباعة والنشر، ط1961م، ص35.
- (21) ابن طباطبا: الفخري في الداب السلطانية والنول الإسلامية، دار صادر، بيروت، لبنان، ص231.
- (22) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6، ص198، 199.
- (23) إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، ط1، 1989م، ص194.
- (24) ابن عبد الظاهر، مصدر سابق، ص35.
- (25) ابن تغري بردي: مصدر سابق، ص24.
- (26) من هذه الفرق، فرقة أسدية، نسبة إلى أسد الدّين شيركوه، الصّاحبة، نسبة إلى صلاح الدّين الأيوبي، العادلية، نسبة إلى الملك العادل. أنظر، عبد الدايم، محمود: مصر في عصري المماليك والعثمانيين 648هـ-923/923-1313هـ/517م-1798م، الناشر: مكتبة الشّرق، جامعة القاهرة، ط1996م، ص24.
- (27) أبو الفدا: أخبار البشر، ج3، ص217.
- (28) بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، مطبعة مؤسّسة: حبيب درغام، وأولاده، ط، 988م، ج42، ص3.
- (29) علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، المطبعة الأميرية ببولاق، مصر، ط1306هـ، ج، ص26؛ المقرئزي: الخطط، ج3، ص122.
- (30) ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج6، ص319.
- (31) لهذه القلعة تسميات مختلفة: المقياس، الرّوضة، الجزيرة، القلعة الصّاحبة. أنظر، السبوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمّد، أبو الفضل، إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1968م، ج، ص381.

- (32) ابن زولاق: تاريخ مصر وفضائلها، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1، 200م، ص118 .
- (33) ابن إياس، محمد بن أحمد ت1523/930م: بدائع الزهور في وقائع الدهور، مطابع الشعب، ص27 .
- (34) شجر الدر، تركية الأصل، وقيل: أرمنيّة، اشتراها الملك الصالح نجم الدين، أيوب، نالت من العزّ، والرّفعة ما لم تتله امرأة حكمت مصر بعد مقتل الملك تورانشاه، وُصفت بعدة صفات كالغيرة، والشهامة، تزوجت الأمير عزّ الدين أيّك بعد تنازلها عن العرش، توفيت سنة1285/656هـ. أنظر، المقرئزي(نقيّ الدين، أحمد بن علي 1441/845م): السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطاء، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط ، ج1، ص459 .
- (35) حصن كَيْفًا: مدينة من ديار بكر، من بلاد الجزيرة بين الدّجلة، والفرات . أنظر، ابن فضل الله العمري: التّعريف بالمصطلح الشّريف، عنّ بتحقّقه وضبطه وتعليق حواشيه: محمد حسين شمس الدّين ، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، هامش رقم1، ص52 .
- (36) أبو شامة: الذّيل على الرّوضتين، نشره وراجعوه ووقف على طبعه: عزّت العطار الحسيني، دار الجبل، بيروت، لبنان، ط2، 1974م، ص184 .
- (37) ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج6، ص329 ؛ أنظر الملحق الثالث(حكام الممالئك)، ص ص 170 ، 171 .
- (38) المقرئزي: المواعظ والاعتبار بذكر الحطّط والنّار، المعروف بالخطّط المقرئزيّة، تحقيق: محمد زينهم مديحة الشّرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط، 1998م، ج1، ص620 .
- (39) نفسه .
- (40) ابن تغري بردي: التّجوم الزّاهرة، ج6، ص372 .
- (41) المقرئزي: السلوك، ج1، ص459 .
- (42) المقرئزي: نفس المصدر ، ص 464 .
- (43) أبو الفدا: مصدر سابق، ص ص184 ، 185 ؛ المقرئزي: السلوك، ص 465 .
- (44) المقرئزي: الخطّط ج3 ، ص 124 .
- (45) المقرئزي: السلوك، ج1، ص 477 .
- (46) المقرئزي: نفس المصدر، ص479، 480 .
- (47) سيف الدين قطز المُعزّي، ثالث سلاطين الممالئك في مصر، وهو ابن أخت السلطان جلال الدّين الخوارزمي، عُين نائباً للسلطنة في عهد السلطان علي بن أيّك سنة1252/650م، شارك في قتل الأمير أقطاي، ثمّ عُين سلطاناً سنة 657هـ / 1259م، أُغتيل عند عودته إلى مصر بالقرب من الصّالحية . أنظر، ابن إياس: مصدر سابق، ص79 ؛ ابن تغري بردي: مصدر سابق ، ج7، ص68 .
- (48) المقرئزي: السلوك، ج1، ص508 .
- (49) ابن تغري بردي: التّجوم الزّاهرة، ج7، ص 54 .
- (50) ابن تغري بردي: نفس المصدر، ص ص 76 ، 77 .
- (51) المقرئزي: السلوك، ج1، ص 520 .
- (52) نفسه .
- (53) الأمير سيف الدّين قلاوون، ولد على السّواحل الشّماليّة للبحر الأسود، وبيع إلى الأمير علاء الدّين آق سنقر العادلي، أحد ممالئك السلطان الأيوبي بألف دينار؛ لذا كُنّي بالألفي، وبوفاته انتقل إلى ممالئك الصّالح نجم الدين، أيوب، وأعتقه سنة647هـ / 1249م، ومنح له لقب أمير، وبموت السلطان الصّالح نجم الدّين سجنه السلطان قطز، لكنّه فرّ عام655هـ/1257م، وساند قطز في قتل بيبرس، عُين أتابكاً في عهد السلطان سلامش، ثمّ صار سلطاناً سنة 678هـ/1279م، له عدّة إنجازات منها، بناء البيمارستانات،، أنظر، ابن تغري بردي: مصدر سابق، ج6، ص248 .
- (54) أبو الفدا: مصدر سابق، صج4، ص155 .
- (55) ابن إياس: مصدر سابق، ص 111 .
- (56) عبد المنعم الهاشمي: موسوعة تاريخ العرب، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط1، 2000م، ج5، ص69 .
- (57) المقرئزي: السلوك، ج2، ص211 .